إستراتيجية الحَرب مع الشيطان

في ضَوء القرآن الكريم

بقلم
عبد الكريم صالح

الكتاب	إستراتيجية الحَرب معَ الشيطَان في ضَوء القرآن الكَريم
تأليف	عبد الكريم صالح
الطبعة	الأولى
المطبعة	دار سطور
الكمية	١٠٠٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة فاطر.

المقدَّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمد لله الذي خَلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تَقديراً، وأفضل الصَلاة وأتـمُ التسـليم على الذي أرسله للعـالمين بشـيراً ونـذيراً، وعلـى أهـل بيتـهِ الـذين أذهـب الله عـنهم الرجس وطهرَّهم تَطهيراً.

وبعد...

جميعُ الأديان السَماويّة تُنبِّه الإنسانَ على وجودِ ذلك العدوّ الذي يُحـاولُ أن يُوصِل الإنسانَ إلى ما وصَل هـو إليـه مـن كونـهِ مطـروداً مـن الرَحمـة الإلهيَّـة وعـن الجَنابِ الإلهي وساحَة القُدس والطَهارة، ولا تَفتأ تُحذّر الانسانَ من اتّباعه والانخداع بألاعيبه، والاغترار بأسَاليبه، ولكن معَ كلِّ ذلك الحثِّ والتَأكيد نَرى أنَّ أغلبَ الناس هُم من أتباعه، لا لكونهِ محبوباً لديهم، أو أنَّ اتّباعهُ مُفضَّل ومُقدَّم علـى اتّبـاع الحـقِّ جلَّ جنابه، وإنّما لكونِ اتّباعه موافقٌ لأهواءِ الناس ورغَباتهم وملذّاتِهم، فهُم يتشبثُون بأيِّ مبررٍ يُبيح لهم إقتناص تلكَ الشَهواتِ والملّذات، فيتَّبِع الشيطانَ لكونه يُعطي تلكَ المُبرِّرات للنَاس، لا لكَونه أحقُ بالاتّباع، وقَـد تكـونُ تلـك المُبـرِّرات تُعطـى للنَـاس بأساليب متعدّدة، قد يكونُ بعضُهم غير مُلتفتٍ أنَّها مِن مَصائِد الشَيطان ولو عَلِمَ أنَّهـا كذلك لاجتَنبَها وابتعدَ عنها، فليسَ كلُّ الناس يُقدِّمُ لذَّةً عاجلةً بألمٍ آجلٍ، بل ديـدنُ العُقلاء عكسُ ذلك تماماً، فإنّا نَرى جميعَ المرضَى في المجتمع يتحمّل أقسى الآلام العاجلة في التطبيب من أجل أن يتمتّع بصحة آجلة، ولا يقدِّم الراحةَ الآنية على الألمِ

اللاحقِ، فكذلكَ الأمرُ بالنسبةِ إلى الناس معَ الشيطان فإنّهم لو عَلِموا أنَّ هناكَ سُمٌّ دُسَّ لهم في العَسل فأنّه لا تُغريهم حَلاوة العَسل العاجِلة عن هلاكِ السُمِّ الآجِل.

والقرآنُ الكريم بيَّن للناس أنَّ هناكَ عدوٌّ لكم وأنّه يُحاول بكل ما أوتي أن يُعرِّضكم للهلاك الدائم وبيّن جميعَ اساليبه وحيلهِ ومكائدهِ، حتّى يكون الإنسانُ على بصيرةٍ من أمره، ونحنُ في هذا الكتاب سلَّطنا الضَوء على ما جاءَ في القرآن الكريم عن تلكَ العَداوة بين الشيطان والإنسان وتلك المعركة التي لا هوادةَ فيها ولا هدنه فيما بينهما، فأنَّ القرآن الكريم حينما حذَّر الإنسان من ذلك العدوّ بيَّن لهُ ما هي الأساليب التي يتّبعها، وكيف يُمكنُ للإنسان أن يَتصدى لها ويتخَلّص منها، فَنحنُ في هذا الكتابِ حاوَلنا أن نبحثَ في هذا الموضوع مقتصرينَ فقط عَلى ما جَاء في القرآن الكريم، ونُعالج الموضوعَ على ضَوئه.

وإنَّ بذرةَ هذا البَحث كانت على شَكل مُحاضراتٍ ألقيتُها في شَهر رمضان المُبارك عام ١٤٣٤هـ ثمَّ ارتأيتُ أن يكون البَحث مُتأنيّاً في تلك المواضيع، وابداءُ بعضُ الأفكار التي قد تكونُ مفيدةً في هذا المجال، ونظَّمتُ البحث من حيثُ الشكل والمَضمون، فكان هذا الكتابُ الذي بين يديك.

أسألُ الله سُبحانه وتعالى أن ينفعَ به إخوتي في الله، وأن يَجعل هذا العملَ خالصاً لِوجههِ الكريم، وأن ينفعَني به يومَ فَقري وفاقتي، إنّه مولاي ومُعتَمدي وثِقتي، وله الحَمد في الأولى والآخِرة.

عبد الكريم صالح

٢٤/ شعبان المعظم/١٤٣٥هجـ

مَعرفة العدوّ

في كلِّ معركة لابدَّ من معرفَة العدوِّ بشكل جيّد ومعرفة إمكاناته ، وإلَّا يُحكم بالخسارة في تلكَ المعركةِ من أوّل جولةٍ، فجهلُ العدوّ موجبٌ للسُقوط في حبَائله ومكائدِه وخُدعه.

إذن نحنُ نتكلَّم عن عدوّ الانسان، وليس كلامُنا في عداوةِ كلِّ فردٍ من أفراد بني آدم، هناك عداوةٌ للإنسان الخليفةِ وعدوٌّ يتربصُ به من أجل إفشاله في هذه المسئولية والأمانةِ المُلقاة على عاتِقه، أمَّا مَن كان خارجاً عن هذه المسئولية وغير مُتحملٍ لها فهو في الحقيقة في طرف العدوّ كما سيتبين ذلك إن شاءَ الله، فالعداوةُ هي للإنسان الممثل لله على الأرض، وإن كان كلُّ إنسانٍ في أصل خلقته فيه هذه القابليّة للخلافة والعَداوة في الحقيقة تكون لك بني الإنسان، والسعي جادّاً من العدوِّ لإسقاطِ أكبر عددٍ من بني آدم في أوَّل الطريق أو في آخره.

لمّا أرادَ الله أن يجعلَ خليفةً له على الأرض فإنَّ أهل السماء استفهموا شِبهَ مُعترضين على هذا الخليفة، كيف استحقّ الاستخلاف وقد عُجن فيه قابلية سفكُ الدماء والافساد في الأرض وأعطِي امكاناتُ ذلك، ولكن سرعان ما تلاشت شكوكُهم واستفهاماتُهم حينما كشفَ الله لهم عدمَ قابليتهم للخلافةِ ولياقة الإنسان لها، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي

بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1]

ولكن بقي في صفوفِهم من لم يرتضِ هذا المشروعُ الإلهيّ وكان يكتُم ذلك في نفسه، كما تلَّمح إليه الآية الأخيرة فلابدَّ من إظهار مكامن ضمائرهم على مستَوى الفِعل ليتبيَّن المُسلِّم لعلم الله سبحانه وحكمته من الرافِض ظاهراً وباطناً، لذا أمرَ الله سبحانَه وتعالى تلك الجُموع بالسجود لآدم فخَضَعت الملائكة لأمر الله سبحانه فعلاً كما سَلَّمت له قبلَ ذلك قولاً فسجدوا لآدم إلَّا فرداً واحداً في صفوفهم إلَّا أنَّه ليس من جنسهم، أبى أن يَخضع لأمر الله فعلاً كما رفض ذلك قولاً، فرفضَ السجود كما يقصُّ ذلك القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

فإبليس هو عدو الله وعدو لآدم وزوجه وذُريته، فَهَو عصَى أمرُ الله ونَصبَ العداء لخليفةِ الله قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4]، يتبيَّنُ أنَّ أوَّل عدوٍّ لآدم وذريتهِ هو ابليس ثُمَّ

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٧.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٦.

حشَّد له أعوانٌ وحُلفاء في عداوَته، فينبغي لنا تسليط الضوء على هذا العدوّ ليكون لنا مزيد معرفة به فنقول:

إنَّ ابليس من الجِن حسبَ أخبار القرآن الكريم حيثُ يقول :﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[١] وهو مخلوق قبل خلق الإنسان من عنصر النار على ما تصرح به الآية : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[٢] وهو غير مرئي للإنسان كما قال سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، والجن مكلفون بالطاعة كما الانس يقول عزَّ من قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤]، ومنهم الصالح المطيع لله سبحانه ومنهم العاصي كما تقول الآية : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[٥].

من خلال هذا العرض الوجيز يتبيَّنُ أنَّ هذا العدوّ الذي من الجن المخلوق قبلَ الإنسان كانَ مكلَّفاً بطاعةِ الله ولمّا لم يكُن له منافسٌ في ذلك كان سلس القياد لأوامر الله سبحانه وتعالى ولكن هناك كوامِنُ في نفسه لا يعلمُها إلَّا علّام الغيوبِ لا تخرُج تلك الكوامنُ إلَّا بالاختبار وقد حصلَ ذلك له وفشَل في الاختبار.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٥٠.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٥) سورة الجن، الآية: ١٤.

الرُسُل إلى الجنِّ

هناك بحثٌ لم أجد من وقفَ عليه تفصيلاً وهو أنَّ الجنّ كما تبيَّن سابقاً أنَّهم مُكلَّفون بعبادة الله ، وهم مخلوقون قبل الأنس بآلاف السنين كما هو وارد في نهج البلاغة في الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين عليه السلام حيثُ يقول: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اَللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ اَلطَّوِيلَ وَ جَهْدَهُ اَلْجَهِيدَ وَ كَانَ قَدْ عَبَدَ اَللَّهَ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ لاَ يُدْرَى أَ مِنْ سِنِي اَلدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي اَلْآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ».

فهذا عُمرُ ابليس في عبادةِ الله أمَّا قبلَ ذلك كم كانَ عُمره أو عُمر الآخرين من الجِن لا ندري عنه شيئاً، فلا بدَّ أن يكون لهم رُسُل منهم في تلك الفترة ، وإن كانَ القرآن يشير إلى إرسال الرسُل للجنِّ والأنس ولكنَّه لا يبيَّن تلك الفترة، قال سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[1]. هذا ظاهرُ الآية يَحكي عن إرسال رُسُلٍ منهم، أمَّا كيفَ ومتى وكم؟ لا يُشير القرآن ولم أجد في الأخبار ما يَنفي كونُ هناك رُسُل من الجنِّ كما أني لم أجد إلَّا خبَراً واحداً صريحاً بوجود رسولٍ من الجنِّ، ففي عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من خبر الشامي وما سأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام في جامع الكوفة حديثٌ طويلٌ وفيه: «وسألته هل بَعَث الله تعالى نبيَّاً

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

إلى الجن؟ فقال: نعم بعث اليهم نبياً يقال له يوسف فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ فقتلوه»[١].

في نهج البلاغة قال عليه السلام: «هُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ وَ بَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ رُسُلَهُ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا وَ لِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا وَ لِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا وَ لِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا وَ لِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَ أَسْقَامِهَا وَ حَلَالِهَا وَ حَرَامِهَا وَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَ الْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَ نَارٍ وَ كَرَامَةٍ وَ هَوَانٍ».

وأمَّا أقوالُ عُلماء الأمّة الإسلاميّة فأكثَر العامّةُ على أنَّ الجِنَّ ليس لهم رسل من بينهم، بل ادعي الاجماع عليه، يقول الفخرُ الرازي في التفسير الكبير: والقول الثاني : وهو قول الأكثرين : أنَّه ما كان من الجن رسولٌ البَتة ، وإنَّما كان الرُسُل من الأنس . وما رأيتُ في تقرير هذا القول حُجَّةً إلَّا ادّعاء الإجماع ، وهو بعيدٌ لأنَّه كيف ينعقِدُ الإجماع مع حصولِ الاختلاف.

وأمّا قولُ الاماميّة في هذه المسألةِ لا سيّما المُفسرين لم يبُتّ أكثرُهم فيها وإنّما اكتفي في نقل الأقوال فيها، والذي يظهَرُ للمتتبّع أنَّ القول كما ذكر الفخرُ الرازي وهو أنَّه لا يستندُ القائلُ بنفي الرسالة عن الجن إلى حُجَّةٍ، وانَّما يَتقبَّلون دعوى المُفسِّرين القدماء كابن كثيرٍ والطبري وغيرهم بلا دليل. قال ابنُ كثير في تَفسيره:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: مِن جُملَتِكم. والرُسُل مِن الإنس فقط، وليس من الجنِّ رُسُل، كما قد نصَّ على ذلك مُجاهد، وابنُ جُرَيْج، وغيرُ واحدٍ من الأئمة، من السَلف والخَلف.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ١ :٧٦٨.

وقال ابن عبَّاس: الرُسُل من بني آدم، ومن الجنِّ نُذُر.

وحكَى ابنُ جَرير، عن الضَحّاك بن مُزاحمٍ: أنَّه زعَم أنَّ في الجنِّ رُسلاً واحتج بهذه الآية الكريمة. ج٢ ص١٨٣

ولكن لو رَجَعنا إلى القرآن الكريم فإنَّ فيه ما يُفيد أنَّ للجنِّ رُسلٌ كما في الآية المباركة السالفة ، وكذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فكلُّ أمةٍ لها نذيرٌ، والنذيرُ من صفات الرسَول كما يقول سبحانَه ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ﴾، والجنُّ أممٌ كما الانس حيثُ يقول الله تعالى ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس فِي النَّارِ﴾.

ثمّ مقتضى عدلُ الله تعالى أن يُرسل لهم رُسلاً لإتمام الحُجَّة عليهم، ولا يقال يُرسل لهم من الانس ويُقيم الحُجَّة ، لأنَّ هذا ليس فيه خلافٌ في حال وجود بني آدم ولكنَّ كلامنا قبلَ خلقِ آدم كيف يُقيم الحُجَّة عليهم، وقد خلقَهم لعبادته ولا يُرسل لهم رُسلاً يُبيِّنون لهم دين الله.

قد يقال لم يكن هناك أُممٌ من الجنَّ قبل خلق الإنسان وإنَّما كان ابليس فقط مخلوقاً قبل آدم، كما قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ*وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[1]. فلا يتم كلامكم.

أقول: ليس ابليس وحدَه كان مخلوقاً قبل آدم ، بل كان هناك جنٌّ غيره كما يستفاد من هذه الآية المباركة: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[2].

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

وهذه الآية: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[١]. فعن ابن عباس أنَّ الجانَّ أبو الجِنّ.

وبالتالي نقولُ ما الضيرُ في كونِ هناك رُسلٌ من الجنِّ؟ وما المانعُ في ذلك؟ هل هو لأنَّهم أقلَّ قدراً من أن يكونَ هناك رَسولٌ منهم كما قيل ذلك؟ أقول كيف يكونوا أقلَّ قدراً وقد بَلغَ أحدَ عبادِهم إلى مَصافِّ الملائكةِ وهو ابليس، حتّى صارَ يُكلِّمُ الله ويحاوره والله يخاطبه ، أليس هذا حوارٌ معه ؟! قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢]. فهذا حالُ واحدٍ منهم، وحُكمُ الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحدٌ، فإذا أمكنَ هذا لإبليس أمكن لغيره، وإذا كان الله جلَّ جلالُه يُكلِّمُه وهو معَ الملائكة فيُمكن أن يَتحمّل الرسالة والتبليغ عن الله.

إن قُلت: إذا كان الجنُّ مكلَّفون وفيهم رُسلٌ فلِمَ لا تكون الخلافةُ لهم في الأرض؟ قلتُ معَ كمال بَعضِهم لا يصلحُ للخلافة على الأرض كما هو حالُ الملائكةِ، وإن كانَ كلٌّ من ابليس والملائكةِ طمعَ في الخلافة لنفسه ولكنَّ الله سبحانه يَعلمُ من هو الأصلح لهذه المُهمّة، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة ص، الآيات: ٧٥ ـ ٨٥.

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ*قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1].

ولا بدَّ من التنبه إلى أنَّ كلامَنا هذا قبلَ خلق الإنسان، وأمَّا بعد خلقه فهناك آياتٌ تشير إلى أنَّ رُسلَ الانس موجهون أيضاً للجنِّ، لا أقل إنَّ بعضاً منهم كمَا يقصُّ ذلك القرآن الكريم قال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ*قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]. فهؤلاء النفر كانوا يعرفون موسى عليه السلام وكتابه ومؤمنين به وحضروا استماع القرآن وآمنوا بالرسول وذهبوا يدعون قومهم إلى رسالة النبي صلى الله عليه وآله واجابة دعوته، وأيضاً ورد في سورة الجن أنَّهم أمنوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا*يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩ ـ ٣١.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ١ ـ ٢.

والخلاصةُ من ذلك كلّه أنَّ إبليس منَ الجِنِّ كان قبلَ خلقِ آدم عليه السلام عابداً مطيعاً لله ولكن عَصى أمر الله بالسجود لآدم فطُردَ من جوار الله وملائكتهِ، وأصبحَ أوَّل عدوّ لآدم وذريته، وهدَفه الأساسي العَمل على طردِ آدم وذريتهِ من رحمةِ الله، فيكونُ هو سببَ طردِهم كما كان آدمُ سبباً في طردهِ، هذه ما يُفيدُه القرآن الكريم.

وهُناك جماعةٌ ممَّن ترى أنَّ وجود الشيطان بهذا النحو، أي أنَّه موجودٌ غيبي لا يُرى من قِبل الإنسان أمرٌ لا يقبلهُ العقل، فلا بدَّ من توجيه معنى الشيطان في كلام الله إلى أمرٍ يقبله العقل.

والجواب على ذلك: إنَّ العقل لا يَحكم بنفي وجود مثل هذا المخلوقُ ولا يقولُ باستحالة وجودِه، ولكنَّ صاحب هذا القولُ لا حُجَّة له سوى الاستبعادُ فقط، وهل من الصوابِ انكارُ كل ما لا يَقع تحت الادراك الحسّي للإنسان؟! فإنَّ الإنسان لا يَعرفُ من موجوداتِ هذا العالم إلَّا أقلَّ القليل، فكيف له أن يقول هذا غيرُ موجودٍ لأنني لا أراه؟! وهذا الميزانُ من أهل النَظر المادي والتجريبي هو الذي أدّى بهم إلى إنكار كل ما هو وراء العالم المادي، ودليلُهم على ذلك أنَّ غير الأمور الماديّة لا تقعُ تحتَ يد التجربة حتّى تحكُم عليها سَلباً أو ايجاباً، فإذن هي غيرُ موجودةٍ، وهذا الكلامُ ثبت بُطلانه في الفلسفة الإلهيّة وفي نظريّة المَعرفة.

عداوّة الله للشيطان

قَد يفهم من العنوان أو كما يتصورُ كثيرٌ من الناس أنَّ الشيطان يُزاحم الله في مملَكته وفي خَلقه، وإرادةُ أوامره نافذةٌ كما أنَّ إرادة الله وأوامره نافذةٌ في خلقه ومملكتهِ، وهذا فهمٌ وتصورٌ ليس له حظٌ من الصواب والصحّة قطعاً، فكيفَ يُمكنُ لمخلوقٍ من مخلوقاتِ الله أن ينقَلب في لحظةٍ من اللحظات من كَونه مخلوقٌ إلى كونه نِدٌّ وضِدٌّ؟! ومن أين حصَل على هذه القوّةُ والمنعةُ لكي يُقارع ملك المُلوك وجبَّار السَموات والأرض؟ وهو الذي أخرَجه من كتم العَدم إلى الوجود وهو الذي يمدُّهُ في كل آنٍ آن بسيل الوجود المُتدفق ليحفظَ له استمرارية وجودِه، ولو قطعَ الله عنه ذلك السيل الوجودي لحظةً واحدةً لرَجع إلى كتم العدَم من جديد ولأصبح اشراقُ وجُوده كضوء المصباح الذي انقَطع عنه التيارُ الكهربائي فيعمَّ ظلامُ العدمِ وتُطوى صفحةَ وجُوده ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1].

فإبليس يُدركُ هذه الحقيقة جيّداً ولا يَجول في خُلدِه حتّى، على أنَّه أصبح نِداً لله يُقارعه في مملكتهِ، وهو القائل: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. فهو يخافُ الله لأنَّه يعرف عظمَته جيّداً ويعترفُ له بربوبيتهِ للعالمين وهو من ضِمن العالمين مربوبٌ لله جلَّ

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦.

جلاله، فكيفَ يتصوّر أحدٌ أنَّ هذا المخلوقُ الفقيرُ الحقير المحتاجُ لكرمِ ربِّه في كل زاويةٍ من زوايا وجوده يكونُ مُحارباً لله ومُضادّاً لهُ؟!

قد تَقولُ وهَل يوجَد أحدٌ يتصَور ذلك؟ أقول نعم كثيرٌ، فإنَّ أصلَ مُعتقد الثنويةِ قائمٌ على هذه الفكرة، فهم يعتقدون بوجودِ إلهين إله الخيرِ وإله الشرِّ، فَجعلوا الشيطان بمصّاف الآلهة، ونحَلوه صِفة الإلوهيّة ظُلماً وبهتاناً.

وعلى كلِّ حالٍ فما معنى أنَّ الله عدوٌّ للشيطانِ؟ كيف نُفسِّر هذه العداوة إذا لم يكُن الشيطان ندّاً لله؟

الله جلَّت اسمائهُ لمّا خلقَ الكونَ بجميع أجزائه ومكوناته لأجل غرضٍ يؤديه ذلك الكون، وكلُّ جزءٍ من أجزاء ذلك الكون يؤدّي وظيفةً تكون جزء ذلك الغرض، كما في الإنسان الغرضُ من وجوده هو الحياة، لذا كلَّ جزءٍ في تركيبته بل كلَّ خليةٍ تؤدّي وظيفةً تساهم من خلالها لتحقيق ذلك الغرض، والكونُ هو الإنسان الكبير كما يعّبر عنه البعض والآدمي هو الإنسانُ الصغير، والشيطانُ هو بعضُ أجزاء هذا العالمُ الكبيرُ، أوجده الله ليُساهم في تحقيق غرض الكون، ولا يُمكن أن يتخلّف عن وظيفته، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى*قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1] فكل شيء اكتسب خلقته من الله سبحانه وهداه لأداء وظيفته، وقال جلَّ مجده: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]. فالأمر كلُّه لله ليس لأحدٍ غيرُه في دار الوجود من الأمر شيءٌ.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

إذن هُناك إرادةٌ نافذةٌ لله سبحانه في مملَكته لا يمنعُها شيءٌ، وكلُّ مطيعٌ وخاضعٌ لها قال سُبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا*لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾[1]. فهناك خُضوعٌ تامٌ وانقيادٌ سلسٌ لا يعرفُ الجُماح من جميع سكان السموات والأرض، بل حتّى من نفس السمواتِ والأرض وليسَ من سُكّانها فقط حيث اجابتا نداء العَظمة : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2]. فالشيطانُ طائعٌ لله خاضعٌ لعبوديتهِ منقادٌ لأمره.

فإذا كان الأمر كذلك فما معنى تَحدّي الشيطانُ لإرادة الله سبحانه؟ ورفضه أمثال الأمر الإلهي؟ : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

الإرادة التكوينيّة والتشريعيّة

حتّى يتضَح الجوابُ على التسائُل السابق ينبغي أن نفهم معنى أنَّ إرادةَ الله نافذةٌ ولا تتخلَّف، أي إرادةٍ هذه التي لا يتخلَّف مرادُها عنها، لنأتي إلى الإنسان وننظُر إلى إرادته فهي تارةً تتعلَّق بفعل نفسه من القيام والقعود والأكل والشرب وسائر الأفعال التي تقع تحت إختياره فهذه الأفعال إذا توفَّرت لها شرائطُها لا تتخلَّف عن إرادة الإنسان، فهو حينما يُريد أن يقوم وهو صحيح البدَن يتحقّقُ منه القيام ولا يتخلّف، أمَّا حينما تتعلّقُ إرادة الإنسان بفعل غيره كما إذا طلبت من زيدٍ القيام فإنَّ قيام زيدٍ لا يتحقّق إلَّا أن يُريد زيدٌ القيام ولا تكفي أنَّني أنا أريدُ منه ذلك، وهذه تُسمَّى إرادةٌ تشريعيّةٌ، فالإرادة التكوينيّة تتعلَّق بفعل المُريد نفسه، والإرادة التشريعيّة تتعلَّق بفعل فاعلٍ آخر مُختار في فعله، لذا نرَى إنَّ الإرادة التكوينيّة لا يتخلَّف مُرادها عنها بخلاف الإرادة التكوينيّة فإنَّه قد يتخَلف، لأنّي قد أريد القيام من زيدٍ ولكنّه هو لا يريدُه فلا يتحقق القيامُ خارجاً.

وعلى أساس هذا الفارقُ بين الإرادتين نقولُ إنَّ الله أراد الطاعة من ابليسٍ وابليسُ موجودٌ مختارٌ لاختياره دخَل في صُدور الفعل منه، فلذا نَرى إنَّه عَصى الأمر الإلهي والإرادة الإلهيّة، لأنَّ هذه الإرادة تشريعيةً أرادت الطاعَة من إبليس في حال إنَّه هو يختَار الطاعة، لا أن تَتحقّق الطاعة رغماً عنه، عند ذلك تخلَّف المراد وهو السجودُ لآدم ولم يتحقّق لأنَّ ابليس لم يرد السجود، وكذلك الحالَ بالنسبة إلى كثيرٍ من أعمالنا نحنُ نخالف فيها أوامر الله، وهذا لا يعني إنَّ الله يُعصى مغلوباً على أمره، بل هو الذي أراد بإرادتهِ التكوينيّة أن يكون إبليسُ والإنسان مختارين في فِعلهما، لذا

لا يتحقّق فعلٌ منهُما إلَّا إذا اختاراه وأراداه، فهنا إرادة الله لم تتخلَّف لكونها إرادةٌ تكوينيّة.

فالله سبحانه قبلَ الخلق عَلِمَ أنَّه إذا خلق ابليس وأعطاهُ الاختيار سوف يتمرّد على الأمر الإلهي، وعَلِمَ أنَّه سوف يتَصدى لأضلال بني آدم، ومع ذلك خلَقه وأراد منه أن يكون بما هو عليه، لكي يُمتَحن به بني آدم، فإبليسُ لم يخرج عن إرادة الله التكوينيّة بل هو مُنسجم معها تماماً وماضيٌ فيما أراده الله منه، وإن كان مُخالفاً لإرادة الله التشريعيّة، وهو من هذه الناحية مشابهٌ لآدم عليه السلام حيثُ أنَّ الله نهى آدمَ عن الاقتراب والأكل من الشجرَة ولكنَّه خالفَ النهي وأكلَ منها، فآدمُ خالف الإرادة الإلهيّة التشريعيّة ولكنَّه منسجمٌ تماماً مع الإرادة التكوينيّة، حيث أنَّ الله أراد تكويناً من آدم أن يكون خليفةً على الأرض، وكان الأكل من الشجرَة سبباً لهبوطه إلى الأرض وتمثيل الله عليها، فإنَّ الله من أوّل الأمر أراد أن يجعل خليفةً في الأرض فخلق آدم لهذه المُهمة، ولو لم يأكل آدم من الشجرةَ لما تحقّق الاستخلاف الإلهي، وإنّما يبقى آدم في الجنّة، وهذا لا يعني أنَّ الله سبحانه هو الذي أجبر آدم على الأكل من الشجَرة، بل عَلِمَ منه ذلك ورتَّب نظام الخلقَ على أساس عِلمه سُبحانه، فَهو يعلم أنَّ ابليس سيختار المعصية ومع ذلك خلقَه وأمَره بالسجود لآدم، فعصى الله تشريعاً ولكنّه اطاع تكويناً وسارَ في الخطة التي رسَمها الله لنظام الخَلق، وهذا معنَى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]. ومعنى القول المنسوبِ للنبي صلى الله عليه وآله كلٌ ميسر لما خُلق له، فسبحان من هو غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

فلولا عصيان إبليس لأمر الله بالسجود لما كان يغوي آدمَ وخرَّجه من الجنة، ولما تحقّقت خلافة الإنسان على الأرض، وليس الأمر في هذه القضية فقط على هذا النحو بل هناك قضايا كثيرة كان للشيطان دورٌ في تحقيق الإرادة الإلهيّة ونفاذها، اذكرُ منها قضيتين فقط:

الأولى: قضية نبيّ الله يوسُف وإخوته لولا أنَّ الشيطان نزَغَ بين يوسف وإخوته لمّا كانوا له أعداءً ولمّا ذهبوا به وألقوه في غيابةِ الجُبِّ ولمّا كان حاكماً على مصر وبيده مقاليد أمورها، لذا نفهم جيداً معنى قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فأمرُ الله في يوسف أن يكون حاكماً في البلاط الملكي في مِصر، فكيف يتحقّقُ ذلك ويوسف عليه السلام في بلاد الشام، فلا بدَّ من إيصاله إلى هناك بطريقةٍ ما، فكان الشيطانُ له دوراً أساسيّاً في تحقيق أمر الله سبحانه، لذا قال: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فكيف يُغلبُ الله في مملكَته وهو الخالقُ والربُّ فيها.

والثانية: قضيّة نبيُّ الله موسى عليه السلام فإنَّ فرعون لمَّا عَلِمَ أنَّه سيولدُ شخصٌ يكون زوالَ ملك فرعون على يده أخذ يقتلُ الرجالَ ويستحيي النساء، ويقتِل كلَّ مولودٍ من الذكور، ولما ولدَ موسى عليه السلام أمر الله أمَّه أن تلقيه في النهر حتّى لا يقتُله آل فرعون وأخذه آل فرعون وتربَّى بينهم، ربّو عدوَّهم ومُهلكهم، كما يقصُّ القرآن لنا ذلك في سورة القَصص، لنتَمعن جيداً في هذه الآيات المباركة: ﴿طسم*تِلْكَ

---

(١)سورة يوسف، الآية: ٢١.

آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ* نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ*إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ* وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ*وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ* وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ* وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ*وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ*وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ*فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فهذه المقطوعةُ الأدبيّة الرائعةُ من الآيات تجلّي لنا الأمر، وهو كيف يتمُ التخطيط الإلهي وكيف يتمُ التنفيذ؟ وعلى أيدي مَنْ؟ واللطيف جداً أنَّ تنفيذ المُخطَط الإلهي يتمُ على أيدي أعداء الله، وهذا هو المَكر والكيد الإلهي ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[2]. ﴿وَيَمْكُرُونَ

(١) سورة القصص، الآيات: ١ ـ ١٣.

(٢) سورة الطارق، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]. فموسى عليه السلام المطلوبُ الأوّل لفرعون وجهازه الحاكم يتربَّى في حجر فرعون ويُحاط بالجلالة الملكيّة، ولما كبَر واحتاج إلى أن يتربّى لتحمُل اعباء الرسالة كانت الخطَّة الإلهيّة مرسومةً بدقةً فائقةً وأيضاً تُنفّذ على يدِ أعتَى أعداء الله وهو الشيطان حيث أغرى شخصَين بالعِراك في معرض مُرور موسى عليه السلام وكان أحدُ الشخصين من المؤمنين والآخر من عبَدة آلهة مِصر، فلمَّا رأى المؤمن ـ وهو من الأسباط أي يَرجع إلى أولاد يعقوب عليه السلام ـ موسى استغاث به فأسرع موسى لنجدَته فضرَب القبطي ضربةً سقط على أثرَها ميتاً، وأصبحَ مطلوباً من جديدٍ للجهاز الحاكِم فخَرج من مِصر هارباً إلى مدين، وهناكَ بَقى عندَ نبي الله شعيب عشرَ سنين أعدَّ من خِلالها للرسَالة الإلهيّة، كما تحكيه هذه المقطوعة الأُخرى من الآيات: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ *

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[1].

فانظُر وأعجب إلى تحقّق الإرادة الإلهيّة تخطيطاً وتنفيذاً، تدبَّر قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾، كيف

(١) سورة القصص، الآيات: ١٤ ـ ٣٢.

تدَّخل الشيطان في تحقيق ذهاب موسى عليه السلام إلى نبيّ الله شُعيب وإعدادِه لتحمُّل رسالة السماء.

فالنتيجة: أنَّ إرادة الله التكوينية نافذةٌ لا يمنعُها شيءٌ، وإنَّ إرادته التشريعيّة قد تتَخلّف ويُعصى أمره ولكن يكون ذلك ضمن التخطيط العام لتحقُّق إرادته التكوينيّة، وعداوة الله للشيطان بسبب عصيانه الأمر التشريعي وليس بسبب عصيانه الأمر التكويني فإنَّ الأمر التكويني لا يتخلّف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]. فحُبُّ الله ورحمتهِ ورأفته التكوينية تشملُ جميع مخلوقاته، لذا يَخلِقُ ويرزِقُ ويُعطي ويدبّر أمر جميع مخلوقاته، ولكنّه قد يبغضُ تصرُفاتٍ وأفعالٍ لا يريدُها من بعض مخلوقاته.

سبب العداوة

انصافاً إنَّ إختبارَ إبليس كان صَعباً جداً ولا يَعرفُ صعوبةَ الموقف إلَّا من يكون في موقفٍ مشابهٍ لموقفه فهو بعد كلِّ هذا العناء والمشقَّة في طاعة الله آلاف السنين حتّى صار من ضِمن المَلأ الأعلى وفي مصّافهم لا يكونُ محل ثقة الله في تحمُّل مسؤوليّة خلافة الله على الأرض ويُقدَّم عليه مخلوقٌ حديثُ العهدِ في الخِلقة ومن عنصُرٍ دون عنصُره ويكون محلّاً لكرامة الله وعنايته، فكيف لا يَحزُّ ذلك في نفسه، كلَّ إنسانٍ ليضَعَ نفسه في هذا الموضع ويرَى ما يكون موقفه أزاء هذا الفِعل؟ فلا تعجَب حينما تسمعه يقول: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١] فاعجابُه بنفسه واعتدادِه بما قام به ضخّم أنانيته حتّى صارَ يرى أنَّ له قراراً في قبال إرادة ربِّ العزَّة والجلال، والذي دفعَه عن مقامِه هذا هو الإنسانُ المتمثّلُ بآدم، فلا بدَّ من أن يَكُنَّ له العداء، فهناك عدَّة أسبابٍ تدعو ابليس لعداوة الإنسان وهي كالتالي:

أوّلاً: إنَّ عُنصر ابليس الناري أشرفَ من عُنصر آدم الترابيّ، يقول الله سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢]. فاعتَقَد ابليس كما يعتَقد كثيرٌ من الناس أنَّ الشرَفَ يكون في أصل الخِلقة وليس هو أمرٌ مكتسبٌ، والحال إنّه ليس في مخلوقٍ على مخلوقٍ فضل إلَّا بمقدارٍ ما يُؤديه من الدورِ المرسوم له، فإن كان ذلك الدَور يدخُل فيه عُنصر الاختيار والإرادة فيكون لصاحبه فضلٌ بأن اختار هذا الطريق دون ذاك، أمَّا الأمور الخارجة عن اختياري كجنسي وصنفي وعرقي ولوني وبيئتي وأهلي ونسبي كلُّ ذلك ليس فيه فضلٌ للإنسان ولا لغيره، فلا داعي للتفاخر بأمرٍ هو لم يُتعِب نفسَه بالحصول عليه، فإبليس كان اعتراضه الأوَّل هو أنَّ عُنصري أشرف من عنصر آدم، فكيف أسجدُ له؟!

ثانيّاً: إبليسٌ له سابقةٌ ينبغي أن تُؤخذ بعين الاعتبار وهي عبادتُه وخضوعُه دهوراً متطاولةً، فكيف يَسجِدُ لموجودٍ حديث عهدٍ بالخِلقة، لم تظهر منه بعد أيُّ ميزةٍ وفضلٍ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

ثالثاً: وهو الأهمُّ أنَّ هذا المخلوق الجديد أُعطي له مقاماً سامياً وهو تَمثُل ربُّ العزَّة والجلال على الأرض وأوكلت له مهام الخلافة التي امتدَّت لها أعناقُ الملائكةِ قبلَ ابليس، حيث قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]. فها هم يَعرِضون انفُسهم، فمن يُسبِّحُ ويُقدِّسُ أولى بالخلافة ممَّن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وغاب عنهم أنَّ الذي خَلقهم أدرى بهم وبقُدراتهم وإمكاناتهم على تَحمُّل المسؤوليّة وعدَمِها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]. فهذا حالُ الملائِكة وهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[3]. فكيف بإبليس الذي لم تَطهُر نفسه بعدُ من الأنانيّة، بل إزداد إعجاباً بنفسه وبما قام به من أعمالٍ، وظنَّ أنَّ له كرامةً عند الله وفضلٍ، ولم يلتَفت إلى أنَّ كلَّ نعمةٍ فهي منه وكلَّ توفيقٍ لعمل خير هو المتفضل به وكلّ هدايةٍ فهي بإحسانٍ منه، فلم يدر في خلده أنَّ مخلوق طيني يكرم عليه ويقدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا*قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

رابعاً: إنَّ طرد ابليس من حَضيرة القُدس وجوار ربِّ العِزَّة إنّما كان بسبب آدم بنَظر إبليس، وإن كان في الواقع ليس كذلك وإنَّما هو بسبب الاستكبار على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة ق، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) سورة الإسراء: الآيتان: ٦١ ـ ٦٢.

أوامر الله وعدمِ الخضوع لحكمته، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١]. ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ*وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلى يَوْمِ الدِّين﴾[٢].

هذه الأسبابُ تجمعُها الأنانيّة التي هي إعتدادٌ بالنفس والاستغناء عن الغير والاستعلاء والتكبُّر من دون حقٍّ، فهذا الذي صرَعَ ابليسُ وسبَّبَ له نِقمةَ الجبَّار، وهو درسٌ لنا أيضاً لنعتَبر به جيّداً، فليس أحدٌ منّا عبدَ الله مثل ابليس عبادةً في سنين طويلة.

أهدافُ العدوّ

إنَّ هدَفَ ابليس الاستراتيجي هو طردُ الإنسان من رحمةِ الله وعنايته، كما طُردَ هو قبل ذلك، وهذا الهدفُ إنَّما يتحقّقُ فيما لو فشلَ الإنسان بمهمَّة خلافةِ الله على الأرض فإنَّ كرامة الإنسان عندَ الله للإنسان الخليفةِ المُمثّل لله على الأرض، وهو لأجل ذلك خلق قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣]. فهو لهذا الغرض أمرَ الملائكة وابليس بالسجود، فإذا لم تتحقّق هذه النتيجة فلا تكون للإنسان كرامةً على الله بل يكون هو شرُّ مخلوقٍ كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) سورة ق، الآيتان: ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

فهذا هدفُ ابليس الأساسيُّ والرئيسيُّ، ولكن لا يعني ذلك أن لا تكون له أهدافاً أُخرى تكتيكيّةً كما يُقال في لغة الحرب واصطلاحها، فنحنُ نعرف أنَّ أسمى درجات الإنسانية وتَمثيل أخلاق الله في الأرض هي عند انبياء الله ورُسُله، وهُم ليس للشيطان سبيل عليهم حسبَ اعترافه هو قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١]. والله سبحانه وتعالى أكد هذا الأمر له حيث قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٢]. ولكن هَل يعني ذلك إنّهم خارجون عن ساحة المعركةِ وعن استهدافِ ابليس وجنوده؟ مؤكَّد ليس الأمرُ كذلك، فهو وإن كان غيرُ قادرٍ بكُل ما أُوتي من قوَّةٍ من إسقاطهم عن مَقام الخلافة ولكنَّه يصعُب عليهم هذا الأمر ويضعَ العراقيل والعقبات في طريقِهم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[٣]. وقال سُبحانه عن أيّوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٤].

وهو الذي سبَّب العداوَّة بين نبي الله يوسُف واخوته حتّى كادوا يقتلوه كما حكاه الله عن يعقوب حيث قال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) سورة ص، الآية: ٤١.

لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[١]. وحكاه أيضاً عن يوسف قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٢]. وكان هو السببُ في إطالة مُدَّة بقاء يوسُف في السجن حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٣].

وهو الذي تسبَّب بتحريض آل فرعون على موسى لقتله بعدَ أن قتلَ منهم شخصاً كما قال الله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ *.... وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

وهو الذي أشار على المشركين في دار الندوة بقتل النبيﷺ وذلك أنَّ نفراً من قريش اجتمعوا فيها و هي دارُ قصي بن كلاب و تأمرّوا في أمر النبيﷺ فقال عِروة بن هشام نتربَصُ به ريب المَنون و قال أبو البختري أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه و قال أبو جَهل ما هذا برأي و لكِن اقتلوه بأن يجتمِع عليه من كُلِّ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٢) السورة السابقة، الآية: ١٠٠.

(٣) السورة السابقة، الآية: ٤٢.

(٤) سورة القصص، الآيات: ١٥ ـ ٢١.

بطن رجُلٍ فيضربوه بأسيافهم ضربَة رجُلٍ واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالديّة فصوَّب إبليسُ هذا الرأي و كان قد جاءَهم في صورَة شيخٍ كبيرٍ من أهل نجد و خطَأ الأوَّلين فاتفقوا على هذا الرأي و أعدَّوا الرجال و السلاح و جاء جبرائيل عليه السلام فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج إلى الغار و أمر عليّاً عليه السلام فبات على فراشه فلما أصبَحوا و فتَّشوا عن الفراش وجدوا عليّاً و قد ردَّ الله مكرَهُم فقالوا أين محمدٌ فقال لا أدرِي فاقتَّصوا أثرَهُ و أرسلوا في طلبه فلمَّا بلغوا الجبَل و مرُّوا بالغار رأوا على بابهِ نسجَ العنكبوت فقالوا لو كان هاهنا لم يكُن نسجَ العنكبوت على بابه فمَكَث فيه ثلاثاً ثمَّ قَدِمَ المدينة . تفسير مجمع البيان للطبرسي ج ٤ ص ٤٥٧ وورَدَ هذا الخبرُ أيضاً من طرُق العامّة كما في الدُرِّ المنثور وغيره.

فإبليسُ حينما يعجزُ عن هدَفه الاستراتيجي يعمدُ إلى مثل هذه الأهداف التكتيكيّة، وليس يقومُ بذلك مع الأنبياء فقط بل حتّى مع الناس الأتقياء، فهو وإن كان يصبُّ عليهم المهمَّة ولكن مع ذلك يوقِعُهم في المَعصية أحياناً كما يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]. فهو يبذُل كل ما بوسعه لتحقيق هدفه الأساسي فإن لم يستطِع يُحاول أن يمنع الإنسانُ عن تحقيق مراتِب أعلى في الكمَال، أو يجعله يخلِط عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً.

فليس أحدٌ من بني آدم خارجاً عن ساحة معركةِ الشيطان، بل الكلُّ عدوٌّ له وهو مُستهدَفٌ من قِبَله ومترَبصٌ به.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

معرفة امكانات العدوّ

في كلّ معركةٍ لم تُقدَّر فيها امكانات العدوّ وقُدراته جيّداً تَحصلُ مفاجئاتٍ غيرُ محسُوبةٍ لعلَّها تقلِبُ موازين القوى، لذا نرَى أنَّ للمعلومَة دورٌ كبير في الحَرب وفي أحيانٍ كثيرَةٍ يكونُ لها حسمُ المعركةِ، المعلومةُ تجعلك صاحبَ المُبادرة وهي التي تمنَع المُفاجئات في الحربِ وهي التي تُفشّل خطط الأعداء وهي التي تُعطيك نقاط الضَعف في العدوّ ونقاط القوّة، ونحنُ هنا نريدُ أن نعرف العِدَّة والعدَد للعدوّ ونتعَرَّف على أساليبه في المعركة.

استَعرَضنا سابقاً مواصفات العدوّ وعرَفنا أنّه من الجنِّ وأنَّه عصى الأمر الإلهي المباشِر له، وهو ما أوجبَ طردَه من رحمَة الله، وسنَتعرَّفَ عليه أكثر من خِلال التعرُّف على امكاناته، ونستعرضها على شكل نقاط:

الأولى: طول العُمر فإنَّ إبليس أخذَ وعداً إلهيّاً بأنظاره إلى يوم الوقت المَعلوم، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[1]. وطولُ العُمر له أهميّتُه البالِغة في المعركة مِن حيثُ إكتساب التجارب وتطويرها، وأيضاً تماسك جبهَة العدوّ، فمِنَ المعلوم أنَّ موتَ القائدِ والزعيم موجب لانشقاقاتٍ كثيرةٍ في صفوف أتباعه، وهذا أمرٌ واضح جدّاً فإنَّا نرى كلَّ أصحاب الأنبياء حصلَ بينهم انشقاقاتٍ وتحَزَّبوا طوائِف، وكذا الأمرُ في الزعامات السياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة، ما إن تغمض عينا الزعيم حتّى تتَشَرذم

---

(١) سورة ص، الآيات: ٧٩ ـ ٨١.

الأتباعُ طرايق قدَدا، فضمانُ طول العُمر يجعلُ جيشَه وقواهُ وأتباعه متماسكين، هذا مضافاً إلى عدم الطمَع في قتل هذا الزعيم والقائد، لأنَّه مضمونُ البقاء، فلا تضعُف جبهتُه بالمؤامرات لقتلهِ واغتيالهِ.

ولا بدَّ أن نعلم أنَّ ليس كلّ الجنِّ له هذه الميزة وهي البقاء دهراً، ولو كانَ الأمرُ كذلك لما احتاج ابليس أن يطلُب من الله تمديد البقاء له، والقرآن صرَّح بأنَّ الجِنَّ حالهم حال الأنس من ناحيةِ الموت والفنَاء حتّى مع تفاوت أعمارهم قال سبحانه: ﴿حَتَّى إذا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ*قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[1].

الثانية: إختفائه عن الأنظار، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. وهذه الميزةُ لوحدها كفيلةٌ في حسم أيَّ معركةٍ، فإنَّ من يتَمتّع بهذه الخُصوصيّة يستَطيع التغلغلُ إلى أعماق صفوف الأعداء واختراقهم من دون أن يشعُر به أحدٌ، فيطَّلع على مكامن القوَّة والضعفِ والخُطط والامكانات، فيصبح العدوّ مكشوفاً أمامه يهجم عليه متى ما أراد ويقضي عليه متى ما أحبَّ.

---

(١) سورة الأعراف، الآياتان: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٢٧.

وهذا الامتيازُ لم يختص به إبليس وحده كما هو في طول العمر، وإنَّما كلُّ قبائلهِ وأتباعه من الجنِّ لهم هذه الخصوصيّة وهي عدم امكانُ رؤيتهم، ولا نقصُد أنَّ رؤيتهم مستحيلة، وإنَّما تكون نادرةٌ ومن بعض الأشخاص لخصوصيّة فيهم، كما هو الحالُ عند الأنبياء والرسُل وأوصيائهم عليهم السلام، فطائفةٌ كبيرةٌ منهم كانوا مُجندين بخدمة نبي الله سليمان عليه السلام وكانوا يحضرون مجلسَهُ ويكلّمهم ويكلّمونه، قال الله عز وجل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[2]. وهناك رواياتٌ كثيرةٌ تتحدّثُ عن رؤيةِ الأنبياء للشيطان وظهورِه لهم، بل حتّى لأفرادٍ من عامّة الناس.

الثالثة: تمكنُه من النفوذ إلى قوى الإنسان الادراكيّة والعلميّة، وهذه الخصوصيّة تُعطيه سلاحاً فتّاكاً، فإنَّ الإنسان قد لا يرَى عدوّه ولكنَّه قد يسمَعه ويعلم بتسلُلِه وإختراقه من خلال سماعه، أمّا إذا كان الإنسان لا يسمعُه أيضاً فإنَّ الخطرَ يكونُ أكبر، فكيف إذا اختلطَت على الإنسان أفكارهُ بأفكار عدوّه؟ ولا يستطيع في الأعمِّ الأغلب من التمييز بينَها، فهنا تكونُ الطامةُ الكُبرى لأنَّه سوفَ يُسيِّرُك من خلال القاءاته وأنت تحسبُ أنكَ تريد أن تُنفّذ أفكارك، ولا تعلم أنَّها أفكار عدوِّك تسعَى لتنفيذِها ضدَّك فتصرعُ نفسك بيدك، قال جلَّ مجدُه: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ

---

(١) سورة النمل الآية: ١٧.

(٢) السورة السابقة، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩.

إلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١]. فالوحي هو إلقاء المعنى بخفاءٍ حسب معناه اللغوي.

وفي الحقيقة إنَّ أهمَّ قُدرةٍ أُعطيت له هي هذه، وسنَرى إن شاء الله إنَّ جميع الوسائل التي يستعملها في معركته تعتمد على هذه الخصوصيّة، لأنَّ الإنسان عادةً لا يستطيع أن يكتشفها، وهذه القدرة عند جميع الشياطين ليس فقط لإبليس.

الرابعة: الأتباعُ والاعوانُ والجيشُ الذي يفوق أعداد البشريّة جميعاً، يقول الحقَّ جلَّ علاه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢]. فعندَه راكبين وراجلين، وقال سُبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[٣]. فله ذُريَّةٌ تعضِده في حربه، ولا يخفى أنَّ شياطينه وكلَّهم بكلِّ بني آدم من أجل أن يضمن هلاك أكبرَ عددٍ منهم.

قد يقال كما قيل إنَّ الشيطان يجلُس على عتبة المسجد ولا يجلُس على عتبة الحانه، وهو مقولةٌ توَّضح أنَّ الخمَّار والإنسان المُنحرف لا يحتاجُ الشيطان أن يغويه ويُضلَّه، ويقتصر في مساعيه على الناس الصُلحاء لإسقاطهم في الرذيلة، فإذا كان

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

الأمر كذلك فإنَّ أكثر من ثلثي البشرية عقائدهم وسلوكهم منحرفٌ، فلا يحتاج إلى هذه الأعداد من شياطينه لإغوائهم.

وهذا الكلامُ غير صحيحٍ، فإنَّ هناك ضميرٌ وعقلٌ عندَ كلِّ إنسانٍ يدعوه في كلِّ لحظةٍ لترك الباطل واتّباع الحقَّ وطلب الاستقامة حتّى عند أعتى المجرمين، فلو تركهم الشيطان وحالهم ولم يوَّكل بهم مرَدَتَه وشياطينه قطعاً سيعودون إلى طريق الصلاح، وهذا الأمر غير خفيٍ على مِثل إبليس، فهو لا يترك بني آدم جميعهم بأيِّ حالٍ من الأحوال، قال الله سُبحانه عن لِسانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]. فهو يُقسمُ بعزَّة الله أنَّ كلّ بني آدم هم أهدافٌ لأغوائه، إلَّا من أخلصَه الله لهُ وهم قليلٌ جدّاً.

الخامسة: سرعةُ الحركةِ وهي عاملٌ مهمٌ أيضاً في المعركة لمباغتةِ العدوّ وسرعة الانتشار والنجدَة، فانَّه في أحيانٍ كثيرةٍ تتَطلبُ المعركةُ إمداداتٍ إضافيّة عاجلة، وسرعة الحركة تؤدي هذا الدور المهم، ويُخبرنا القرآن عن عفريتٍ من الجنِّ وهو العارِمُ الخبيث له مقدرةٌ على الانتقال من الشام إلى سبأ خلال وقتٍ قصيرٍ معَ حملة عرشٍ عظيمٍ لملكة سبأٍ وليس بمفرده، قال الله سبحانه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[2].

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩.

السادسة: إختراق الأجواء والغوص في البحار، قال تعالى حكايةً عن الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا*وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[2]. وهذه القُدرة تُمكنهم من لحاق عدوّهم في أيِّ مكانٍ ويكون تحت طائلتِهم، ولا يوجدُ مكانٌ لا يُمكنهم الوصول إليه حتّى يفُرَّ إليه بني آدم منهم، سواءً كان في قعرِ البِحار أو في كبدِ السماء لا يتصور أنَّه بمأمنٍ من لحاقِهم له.

السابعة: القيامُ بالأعمال الشاقّة الماديّة، كما ذكَرنا في النقطةِ الخامسة أنَّ العفريت يتمكّن من حمل عرشٍ عظيم ـ كما يصفه القرآن ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[3] ـ ويقطعُ به مسافاتٍ طويلةٍ في وقتٍ قصير، وهذا جُهدٌ كبيرٌ، وكذلك يقومون بالغوص كما مرَّ، والبناء أيضاً، كما يقول القرآن: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[4]. وهذه الميزةُ تكشفُ عن قوّتهم البدنيّة، فهم وإن كان في الأعمّ الأغلب لا يستعمِلوا هذا الخاصيّة لضرب الإنسان مباشرةً، ولكن تعطيهم الطاقة والتحمُّل في المواجهَة، فإنَّ من يكونُ ضعيف القوى والبنية يكون أقلَّ تحمُّلاً في ساحات المعركة من الأشدّاء الأقوياء.

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ٢٣.

(٤) سورة ص، الآية: ٣٧.

بعد الاطلاع على هذه الامكانات قد يصيب الإنسان اليأس من الانتصار في هذه المعركة، لأنَّ في كلِّ معركةٍ لابدَّ من وجود توازن قوى بين الطرفين، وأيّ توازن بين الإنسان وبين الشيطان مع ما أُوتي من قدرةٍ وامتيازٍ يصعب بل قد يستحيل الانتصار معها؟

ولكن في الحقيقة هذه نظرةٌ متشائمةٌ جداً ويائسة، والأمر ليس كما ذكر، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لو لم يعلم أنَّ امكانات الإنسان واستعداداته ليس فقط تتوازن مع امكانات الشيطان بل تفوقها بأضعافٍ مضاعفة لما أعطى الشيطان هذه القدرات، ويكون خلاف عدل الله ورحمته وحكمته، وإلَّا كيف يخلق الإنسان لمهمّة يعلم سلفاً أنَّه سيفشل فيها؟!

فالله خلق الإنسان لخلافته في الأرض والخلافة لا تتحقّق إلَّا بالإنسان الصالح، فلو كان الإنسان لا يتمكن من الصلاح لتفوق قوى الشر عليه، لما أمكن أن تتحقّق غاية الله من الخلق.

ولو كانت هذه المميزات تجعل الشيطان متفوقاً على الإنسان، لكان هو أولى بمهمّة الخلافة على الأرض من الإنسان، كما قال ابليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]. ولكن الخالق جلَّ مجده هو أعلم بخلقه من ابليس ويعلم أنَّ هذا المخلوق من تراب هو أجدر بتحمّل أعباء الخلافة، وهذا يعني أنَّ امكاناته أكبر وأعظم من امكانات إبليس، لذا أُعطي ابليس هذه الامكانات حتّى تكون الحرب متكافئةً بين الطرفين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

هذا مضافاً إلى أننا حينما نطلع على مسيرة الإنسان وتاريخه على الأرض نجد أنَّ الهدف الإلهي متحقّق في كل زمان، فلا تخلو الأرض من حجّة لله في أرضه، فقوافل الأنبياء والرسل توالت في البشريّة، وهم يمثلون اسمى درجات الخلافة على الأرض، ووجودهم يمثل نجاح المشروع الإلهي وانتصار الخير على الشر، لذا كان على البشريّة أن تتأسّى بهم في مسيرتها، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

فهؤلاء الأنبياء والرسل إنموذجٌ للبشريّة لكي لا يصيبها اليأس والإحباط في حربها مع قوى الشرّ، فالله يريد أن يقول للناس لا تيأسوا هؤلاء بشرٌ مثلكم وقد انتصروا على الشيطان فأنتم قادرون على الإنتصار، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

وحتى لا يحتجّ الإنسان على الله في حال فشله في هذه المعركة ويقول لله أنت من أعطيت كلَّ هذه الإمكانات للشيطان ولم تعطني مثله، فكيف تحاسبني على خسارة المعركة؟! فالله سبحانه وتعالى يقول له إنَّ إمكاناتك أكبر وأكثر من قوى الشرّ، والدليل على ذلك هذه النماذج من البشر ماثلةٌ أمامك، وقد حققّوا أروع البطولات في معركتهم، فلو كانت إمكاناتك أقل فكيف إنتصر من هم مثلك؟! فإنَّ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٦.

حكم الأمثال واحد. لذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

وإن قال قائلٌ ـ وقد قيل ذلك ـ إنَّ الأنبياء لهم قدراتهم الخاصّة التي أُعطيت لهم من الله تفوق قوى الشيطان، فلم لا ينتصروا عليه؟! ونحن لا نمتلك مؤهلاتهم حتّى ننتصر مثلهم، فهم محاطون بعناية الله وتسديده وتوفيقه وتأييده لهم بأعظم ملائكته، ونحن ليس كذلك.

أقول هذا كلامٌ غيرُ صحيحٍ البتّة، فهم بشرٌ كما نحن بشر، لذا كانت صفة البشريّة ولا زالت سبباً لعدم ايمان كثيرٍ من الناس، قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[٣].

فلو كان الرسول من غير البشر لقال الناس نحن بشرٌ لا نقوى على ما تقوى عليه هذه المخلوقات، وإن كان من البشر قالوا ما هو فضلكم وميزتكم علَّنا حتّى نتبعكم؟ والحال أنكم بشرٌ مثلنا، فهكذا يجادل الإنسان، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[٤].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

فهذه في الواقع مجادلةٌ فقط لا تتكئ على أيِّ حقيقةٍ أو واقعٍ، فالأنبياء بشرٌ مثلنا، وقدراتهم لا تفوق قدراتنا، وهم كانوا يعيشون بين ظهراني أقوامهم فلو كانوا يتمتّعون بقدراتٍ خارقةٍ لعرف ذلك منهم القاصي والداني، ولتمّت حجّة الكافرين عليهم بقولهم إنَّكم تتفوقون علينا بأمورٍ نحن لا نمتلكها فلا تطلبوا منّا أن نكون مثلكم، قال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

إن قلت: أليس هم مَنْ أتى بشتّى أنواع المعجزات التي عجزت أقوامهم عن مواجهتها ومحاكاتها؟! فكيف تقول إنَّهم لا يتمتّعون بقوى اضافيّة نحن لا نمتلكها؟! فهل هذا إلَّا إنكار أمرٍ بديهي؟!

قلت: هناك غفلةٌ وعدم التفاتٍ لحقيقة المعجزة والغاية منها، فهي:

أولاً: المعجزة تتحقّق من خلال الطلب من الله ودعائه، فما للنبي سوى أنَّه يدعو الله سبحانه فيحقق الله المعجزة على يديه، قال سبحانه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾[3]. فالله سبحانه هو من جعل العصى حيّةً تسعى وهو من سيعيدها سيرتها الأُولى، أي يرجعها إلى ما كانت عليه، فهذه حقيقة المعجزة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٦.

(٣) سورة طه، الآيات: ١٧ ـ ٢١.

ثانياً: الغاية من المعجزة هي إثبات نبوّة النبيﷺ وأنَّه متّصلٌ بالسماء، وأنَّ الذي يقوله ويدعو إليه ليس من عند نفسه، بل من الله والدليل عليه ها هو ذا الله يجري على يديه المعجزات، فلو كان يفتري على الله، فالله قادرٌ على أن يهلكه سريعاً ولا يمهله، قال جل من قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1]. فهذا فقط وفقط كلُّ دور المعجزة، وهي حالةٌ استثنائيةٌ جداً في حياة الأنبياء، لا يلتجئون إليها إلَّا عند الضرورة القصوى، وهي فوق ذلك كله أمرها ليس بيدهم متى ما شاءوا اعملوها، بل أمرها أوّلاً وآخراً بيد الله سبحانه وتعالى يجريها إذا اقتضت حكمته ويمنعها إذا خالفت الحكمة، قال سبحانه عن لسان عيسى بن مريمعليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]. وقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا*إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[3].

ولو كان أمر المعجزة والقوى الخارقة بيد الأنبياء لما جرى عليهم ما جرى من قتلٍ وهوانٍ واستهزاءٍ وتشريد، ولما كانوا ينتصرون مرةً ويخفقون مراتٍ في حروبهم، حتّى أنَّ النبيﷺ في معركة أُحد كسرت رباعيته وشجّت جبهته الشريفة

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ ـ ٤٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

وقتل من قتل في تلك المعركة، فأين هي تلك القوى الخارقة لتنقذ النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه ممّا جرى عليهم؟

وبعد هذا كله لو تنزّلنا وقبلنا قول القائل أنَّ الأنبياء لهم ميزةٌ على سائر البشر فإنَّ هناك أفراداً ليسوا بأنبياء كانوا قمّةً في الصلاح والاستقامة، ومثّلوا الخلافة الإلهيّة خير تمثيل، والقرآن يقصُّ علينا بعضاً من أخبارهم كما في الخضر وذي القرنين ولقمان الحكيم وغيرهم، فهؤلاء بشرٌ انتصروا في معركتهم على الشيطان، فكيف يقال إنَّ قدرات الشيطان تجعل الانتصار مستحيلاً عليه؟! بل هذا الكلام هو من أساليب الشيطان لكي يهزم الإنسان نفسيّاً قبل بدء المعركة كما سنطّلع على ذلك إن شاء الله.

معرفةُ زمانِ المعركةِ ومكانها

المعركة بدأت زماناً مع بني آدم من حين خلق الله آدم لإستخلافه في الأرض، من هناك بدأت العداوة كما تقدّم سابقاً، وهي باقيةٌ إلى فناء المخلوقات بالنفخة الأُولى من الصور كما قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[1]. وهذا هو الوقت المعلوم الذي وعد به إبليس في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[2].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الحجر، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

فإبليس طلب أكثر من هذا الوقت، طلب بقائه إلى يوم البعث ولكنَّ الله سبحانه أعطاه إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم النفخ في الصور، فإنَّ يوم النفخ لا يبقى أحدٌ من المخلوقات على قيد الحياة، كما عبرت الآية فصعق من في السموات ومن في الارض، فكيف يبقى هو مستثنى من سائر الخلق حيّاً؟! فكثيرٌ يتصور أنَّ يوم الوقت المعلوم هو يوم البعث الذي طلبه ابليس، وهذا تصورٌ خاطئ، فهذا زمان معركة الشيطان مع النوع الإنساني.

أمَّا زمان المعركة مع كلِّ فردٍ من أفراد بني آدم فهو من حين تكوّنه جنيّاً، بل حتّى قبل انعقاد نطفته، قال سبحانه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. فهناك من الأولاد من للشيطان فيهم شرك، أمَّا كيف يكون ذلك ولماذا؟ سنذكره إن شاء الله تعالى في بحث أساليب الشيطان مفصّلاً، ولكن هنا نبيّن أنَّ المعركة تبدأ من كلِّ فردٍ قبل انعقاد نطفته حتّى يجعل امكانيّة الصلاح تكاد تكون معدومةً في بعض الأفراد، وتبقى المعركة قائمةً إلى أن يشرف الإنسان على عالم الآخرة وهي ساعة الاحتضار وانكشاف الحقائق، هنا إمَّا أن يسجّل النصر على هذا الفرد وحسم المعركة وإمَّا أن يخيب مسعاه كلّه على مدى عمر ذلك الشخص لأنَّه خُتِم له بخير.

وهنا يوجد اشتباهٌ عند البعض يتصّور أنَّ هناك غلقٌ لباب التوبة في غير وقت الاحتضار، سمعته مراراً، وهذا يعني حسم المعركة لصالح الشيطان قبل أوان انقضائها، وتسجيل انتصارٍ له على بعض الأفراد.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

أقول: هذا التصوّر مجانبٌ للصواب وخلاف صريح الآيات القرآنيّة التي منها هذه الآية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[1]. فإنّ النفس التي لم تؤمن لا ينفعها الايمان في حال إتيان الملائكة لقبضها، وحتّى النفس المؤمنة لا ينفعها العمل في حال الاحتضار فقد انتهى وقت العمل وبدت معالم وقت الحاسب وطلائعه، قال سبحانه وتعالى حكايةً عن فرعون: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2]. فلم ينفعه الايمان وهو قد أشرف على الموت، وأصرح من ذلك هاتان الآيتان: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا*وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3]. فباب التوبة مفتوحٌ إلى ساعة الاحتضار، وفرصة الافلات من قبضة الشيطان متاحةٌ إلى تلك اللحظة التي يمكن لذلك الإنسان أن يسجّل النصر النهائي على إبليس وأعوانه، ويخيب سعيه في تلك السنين من العمل الدؤوب.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

فهذا هو وقت وزمان المعركة مع الشيطان، مع بني آدم بصورةٍ عامّةٍ، ومع كلِّ فردٍ بصورةٍ خاصّةٍ.

مكان المعركة هو أوسع من مكان تواجد الإنسان على هذه الأرض، فإنَّ هناك أماكن لا يصلها الإنسان يذهب إليها الشيطان ليعزز مواقعه في معركته، من قبيل قعوده في السماء لاستراق السمع من الملأ الأعلى والإطلاع على ما يجري من تقديرٍ لبني آدم لكي يستفيد من تلك المعلومات في معركته، قال سبحانه حكاية عن بعض الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا*وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[1]. وهناك أماكن في أعماق البحار لا يستطيع الإنسان أن يصل إليها يستطيع الشيطان أن يذهب هناك، كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ﴾[2]. وقال: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[3].

فبُعد السماء وأعماق البحار هل هناك مكانٌ لا تطاله أيدي الشياطين؟! إذن كل الأرض تحت تصرفهم وفي قبضتهم، يلحقون الإنسان أين ما حلَّ وارتحل، فهم يذهبون إلى أبعد مكانٍ في المعركة، كما أنَّهم يقتربون من أقرب الأماكن للإنسان وهو بدنه، ففي الخبر المشهور إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فالساحة مفتوحةً له على مصراعيها يجول فيها ويصول كيفما شاء ومتى ما أراد. وهذا هو مكان المعركة مع الشيطان.

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

وقبل الدخول في بيان أساليب الشيطان التي يعتمدها في المعركة مع الإنسان نريد أن نبيِّن ما هو وجه الحكمة من خلق مثل هذا المخلوق وإعطائه مثل هذه الامكانات وتسليطه على بني البشر؟

الحكمة من خلق الشيطان

خلق الله الكون وفق نظام الحكمة بأبدع ما يكون، تتجلّى فيه قدرة الله وعلمه وعظمته، كما تدلُّ الصنائع على مدى إبداع صانعيها، فهذا أمرٌ واضحٌ لكلِّ ذي عقلٍ، ولكن قد يتسائل البعض عن بعض الموجودات التي تجلب الشرَّ في هذا العالم ما هو وجه الحكمة من خلقها وايجادها؟

والجواب عن ذلك تفصيلاً يذكر في بحث الشرور في الحكمة والفلسفة الإسلاميّة، وما يهمّنا هنا الحديث عن وجه الحكمة في وجود الشيطان:

نقول: إنَّ هذا العالم والكون التنوع فيه يشكّل حقيقة الابداع، بحيث تتشابك كلُّ موجوداته وتنتظم فيما بينها يكمل بعضها بعضاً ولا يستغنى بعضها عن البعض الآخر، وكلّما تقدّم العلم كشف لنا عن كثيرٍ من أشكال الترابط بين الموجودات الماضية والحاضرة والمستقبلة تنظمها شبكة من العلاقات المتشابكة والمعقّدة جداً، حتّى أنَّ بعض المفكرين أفرط في القول في هذا الارتباط فقال ليس هناك هويةٌ لكلِّ شيءٍ وإنَّما كلَّ شيءٍ هو عبارةٌ عن مجموعة علاقاتٍ وارتباطاتٍ، وإنَّ هذه الارتباطات هي التي تشكّل هويّات الأشياء.

فإذا كانت الأشياء مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً فيما بينها، فهي تؤثِّر وتتأثّر بعضها في بعض فما نرى من فائدةٍ وخيرٍ من بعض الموجودات فهذا ليس هو منها خالصاً،

وكذا ما نرى من بعض المفاسد والشرّ في بعض الموجودات الأُخرى فهو ليس منها خالصاً كذلك، وإنَّما هذا بسبب تشابك العلاقات والارتباطات فيما بينها، هكذا خلق الحكيم هذا العالم بأدق تقديرٍ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]. وقال عزَّ اسمه: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[2].

وعلى أساس ذلك لا يوجد عندنا في هذا العالم موجودٌ شرٌّ محضٌ ولا موجودٌ هو خيرٌ محضٌ، وإنَّما لا بدَّ من إعطاء نسبة لكلِّ موجودٍ هو لكذا من الموجودات شرٌّ بنسبة كذا وخيرٌ لموجوداتٍ أُخرى بنسبة كذا، فيكون الحكم صائباً آنذاك، والحكم على الشيطان يخضع لهذا الضابط أيضاً، لكونه موجودٌ من موجودات هذا العالم ومخلوقٌ لله سبحانه وتعالى، فهو وجد وفق الحكمة الإلهيّة، فإذا نظر إليه نظرةً مجتزئةً ومقتطعةً بمعزلٍ عن باقي العالم فيحكم عليه بالشرِّ وإنَّه قذارةٌ في هذا العالم وكان من المفترض أن لا يخلق ولا يوجد في هذا العالم، وهذا الحكم خاطئٌ قطعاً، لكون موجودات العالم ليس منفصلةً بعضها عن البعض الآخر كما تبين ذلك، والحكم على البعض بمعزلٍ عن ارتباطه بباقي الأشياء هو حكمٌ جزافيٌ لا يستند إلى معطىً علمي أو موضوعي، نظير ما إذا حكمت على مكان التخلي (التواليت ، المرافق الصحية) إنَّه مكانٌ للقاذورات فلمّا أوجده باني هذا البيت، وهل يصح أن يكون في هذا القصر الجميل الذي هو قمّةٌ في الابداع والروعة مكانٌ قذرٌ بهذا الشكل؟! فهذه النظرة هي كتلك بالنسبة إلى الشيطان، فإنَّ القصر

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢.

والبيت الذي لا يوجد فيه مكانٌ لقضاء الحاجة أولاً هو بيتٌ غير مكتملٍ، وبانيه لا يتّصف بالحكمة، وثانياً إنَّه من الصعب السكنى فيه وهو بهذا الحال، فالنظر إلى مكان التخلّي أنَّه مكانٌ قذرٌ هو نظرٌ بعينٍ واحدةٍ ترى النصف الفارغ من الكأس كما يقولون ولا ترى النصف الممتلئ، وكلامنا في الشيطان هو كذلك، فهو وإن كان فيه قذارةٌ في هذا العالم ولكنّه جزءٌ متممٌ فيه، قد يكون من الصعب وجود إنسانٍ في هذا الكون من دون وجود الشيطان، هذا حتّى نحو الاجمال والقاعدة العامّة في موجودات هذا العالم، أمَّا إذا أردنا أن نتعرّف على وجه الفائدة والحكمة من وجده بصورةٍ خاصّةٍ، فلا يمكننا أن نستقصي ذلك، كما أنَّ علماء الطبيعة لا يمكنهم إحصاء وجه الفائدة من أيِّ موجودٍ من موجودات هذا العالم، وإنَّما يعددوا الفوائد التي اكتشفوها فقط، ونحن أيضاً نذكر هنا بعض أوجه الحكمة من وجوده، ولكن لا على سبيل الحصر والاحصاء، وإنَّما ما اكتشف من الأوجه فقط:

منها: إنَّ من أسباب استخلاف آدم على الأرض يمرُّ من خلال أكله من الشجرة المنهي عنها، فحينما وسوس إليه الشيطان وأغواه أكل من الشجرة، فتوجّب عليه الخروج من الجنّة التي كان لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى، فهبط بسبب العصيان إلى الأرض، وإلَّا لو لم يأكل من الشجرة لمكث في الجنة إلى ما شاء الله.

إن قلت: إنَّ آدم من أول الأمر هو مخلوقٌ ليكون خليفةً على الأرض كما تذكر الآيات المباركة: إني جاعلٌ في الأرض خليفة، فسواء وسوس إليه الشيطان أم لا فإنَّه سيهبط للأرض.

نقول: ليس الأمرُ كذلك فإنَّ حكمة الله تقتضي أن تجري الأُمور بأسبابها، أي: أنَّ خلافته على الأرض لا بدَّ أن يمرَّ من ذلك الطريق المرسوم وفق ما هو موجودٌ في العلم الإلهي، فإنَّ نظام العالم العيني مبنيٌّ على وفق نظام العالم العلمي لله سبحانه وتعالى، فالشيطان جزءٌ من ذلك النظام المتشابك، لذا كان سبباً لإستخلاف الإنسان على الأرض.

ومنها: أنَّ الابتلاء لا يحصل إلَّا بوجود عنصر الشرِّ، حتّى يكون أمام الإنسان طريقان فيعمل اختياره في انتخاب أحد الطريقين، أمَّا إذا لم يكن هناك شيطانٌ فلا فضل في انتخاب طريق الخير لأنَّه لم يكن هناك ما يدعو إلى سلوك طريقٍ آخر، وبذلك يكون للإنسان فضلٌ في اختيار طريق الخيّر والطاعة لله مع وجود ما يدعوه إلى طريق الشرِّ والمعصية، فإنَّ طاقات الإنسان وإمكاناته تبقى في طور الكُمُون ولا يكون لها فعليّةً وظهوراً إلَّا بعاملٍ خارجي، فكيف يتلبّس الإنسان بالصفات والأخلاق الفاضلة ما لم يكن هناك عملٌ لاستحصالها، والعمل لا يرتقي بالنفس إن لم يكن فيه تجاذبات بعضها يدعوه لإنجازه وبعضها يخذله عنه، فيحصل صراعٌ في النفس وعندئذٍ يتبيّن موقف النفس في هذا الصراع، فإنَّ الجود والشجاعة والصبر والعفّة وغيرها من الملكات الفاضلة، لا تظهر في الإنسان ولا يمكنه أن يدّعي أنَّه متلبسٌ بها ما لم يكن هناك موقفٌ للشجاعة أثبت فيه أنَّه شجاعٌ وكذا في الصبر والجود وغيرها، فإذا قاوم الإنسان كل الموانع وأتى بالفعل مكرراً خرجت تلك الملكات من الكُمُون والقوة إلى الظهور والفعليّة، وأبرز الموانع لتحقّق الإنسان بالكمالات والفضائل هو الشيطان فهو يحاول جاهداً قطع الطريق عليه ومنعه، وهذا

المنع والقطع هو في الحقيقة يُنمّي طاقات النفس ويقوّيها، نظير الشجرة البريّة التي تصارع الظروف القاسية حتّى تعيش فإنَّها تكون أصلب عوداً وأبطأ خموداً.

معرفة أساليب العدو

معرفة أساليب العدو تُمكّن المقاتلين في المعركة من تجنّب السقوط تحت ضربات العدو، وأخذ الحيطة والحذر منها، والاستعداد لمواجهتها وافشالها، وبالتالي مقاومته والانتصار عليه، وليس من السهل معرفة أساليبه خصوصاً أنَّ حربه ليست حرباً تقليديّة، لذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. فبفضل الله ومنته نستطيع أن نعرف أساليبه وألاعيبه ونتجنّبها، ولولا أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا عن أهمّ تلك الأساليب وكيفيّة الافلات منها لوقعنا صرعى من أوّل جولةٍ من جولات تلك المعركة.

ولا يكفي مجرّد الإطلاع والعلم بأساليبه مالم يعمل الإنسان على مقاومتها والتصدي لها، فكثيرٌ منّا يعلم مضارَّ بعض الأطعمة والأشربة ولكن لا يجتنبها، وبالتالي نقع ضحايا ضرر الطعام والشراب، فكذلك الحال مع أساليب الشيطان، لا تكفينا معرفتها من دون العمل على افشالها.

ومن المتعسّر جدّاً إذا لم نقل متعذّر معرفة جميع أساليبه، خصوصاً أنَّها قابلةٌ للتطوير بين الحين والآخر، فالشيطان لمّا يرى أنَّ أكثر الأساليب لا تنجع مع بعض

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

الأفراد يبتكر الجديد الناجع، هناك أساليبٌ عامّةٌ يتبعها مع جميع بني آدم وهي تنفع مع الجميع، وهناك أساليب مصنّفةٌ على أساس أصناف الناس، فهو يجعل لكلِّ صنفٍ من الناس أساليب خاصّة قابلة للتطوير، فللنساء أساليب وللرجال أُخرى والتجّار والباعة والعلماء وأهل الصناعة والزراعة والجند والعسكر والملوك وغيرهم.

الزينةُ والتزيين

ذكروا في معنى الزينة : ما يحصل به الزين، والزين : الحُسن. أي أنَّ الشيء الحَسَن بنفسه يقال عنه زين، ويُضاف إلى غيره فيتحسّن به ذلك الغير فيكون زينةً له.

وقالوا: التّزيين تفعيل من الزّيْن، وهو الحُسن؛ أو من الزّينة، وهي ما يتحسّن به الشّيء. فالتّزيين جعل الشّيء ذا زينةٍ أو إظهاره زيْناً أو نسبته إلى الزّين.

فلفظ الزينة في كثيرٍ من الآيات يراد به ما يزيّن به الشيء وهو ليس من أصل خلقته، وهذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، ومن يقوم بفعل التزيين مؤكّدٌ أنَّه يقوم به لغايةٍ من الغايات وإلَّا يكون فعلاً عبثيّاً، فهذا الفعل يقوم به الفاعل المختار لكي يتوصّل به إلى غرض، فنرى أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[2]. فالله سبحانه وتعالى زيَّن الأرض بما عليها حتّى تصلح لسكنى بني آدم ويسهل العيش عليها ويطيب، من هذه الزينة الحيوانات التي يألفها

(١) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٢) سورة الصف، الآية: ٦.

الإنسان : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]. وما يمتلكه الإنسان من مقتنياتٍ وأموالٍ وحتى الأولاد هي من الزينة كما قال سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٢].

إذا علمنا أنَّ الزينة هي تكون فوق الجوهر أو بتعبيرٍ آخر فوق قوام ذات الشيء وتكون زائدةً عليه، فلا بدَّ أن يكون الشيء ليس جميلاً في نفسه فيحتاج إلى ما يضفي عليه الجمال هذا أوّلاً، وثانياً لا بدَّ أن تكون الزينة شيئاً جميلاً في نفسه حتّى يضفي جماله على غيره. فما هو الجمال؟ وهل في الأشياء ما هو ليس بجميلٍ حتّى يحتاج إلى ضمِّ ما هو جميلٌ إليه؟

الجمال والحسن

لا نريد أن ندخل في الجدل الفلسفي والفكري حول تعريف الجمال، ومقوّماته وخصائصه، لأنَّه لا فائدة منه هنا، فقط أورد ما ذكروه في الفرق بينه وبين الحُسْن كما جاء في الفروق اللغويّة لابي هلال العسكري ص١٦٥ قال:

الفرق بين الجمال والحسن: أنَّ الجمال هو ما يشتهر ويرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق ومن كثرة المال والجسم وليس هو من الحسن في شيء ألا ترى أنَّه يقال لك في هذا الأمر جمالٌ ولا يقال لك فيه حسنٌ، وفي القرآن " ولكم فيها

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

جمال حين تريحون وحين تسرحون " يعني الخيل والابل. والحسن في الأصل الصورة ثم أستعمل في الأفعال والأخلاق: والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم أستعمل في الصور. انتهى

فالحُسن والجمال قد يستعمل أحدهما مكان الآخر عند عامَّة الناس، وتوصف بهما بعض الأشياء أي ذات الشيء يكون حسناً وجميلاً، أو تكون فيه صفةٌ تجعله كذلك سواءً كانت تلك الصفة محسوسةً بإحدى الحواس الخمس أو مدرَكة بالعقل، ولذلك توصف بالحسن والجمال بعض الأخلاق والأفعال، فيقال خلقٌ حسنٌ وجميلٌ أو فعلٌ حسنٌ وجميلٌ.

والأشياء جميعاً وإن كانت في أنفسها حسنة من حيث هي خلق الله وفعله حيث قال: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ*الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[1]. ولكن قد يتفاوت إدراك ذلك عند كثيرٍ من الناس، فيرى أنَّ بعضها جميل وبعضها قبيح، ويمكن تحسين القبيح بضمِّ الجميل إليه حتّى تموه قباحته، ويسمى هذا الفعل تزييناً، وقد يكون الشيء ليس بقبيحٍ وإنَّما صفاتٌ حسنةٌ خافيةٌ فيعمل على إبرازها كي تكون ظاهرةً لمن يتطلّع نحوه، وهذا أيضاً يسمى تزييناً.

والجمال سواءٌ كان ذاتياً أو كان مصطنعاً في الأشياء هو سرُّ الانجذاب نحوها، فالإنسان بفطرته يميل نحو الجمال ويسعى للحصول عليه، لأنَّه يرى ذاته ناقصةً والاشياء الجميلة هي مكمّلةٌ لنقصه فيتطلّع للحصول عليها فراراً من النقص،

---

(١) سورة السجدة، الآيتان: ٦ ـ ٧.

فهو لا يطلب شيئاً ولا يفعل فعلاً إلَّا أن يكون ذلك الشيء أو ذلك الفعل يرفع عنه نقصاً في ذاته.

فالله سبحانه حينما زيَّن الأرض بما عليها وزيَّن السماء بما فيها حتّى تُقدَّم للإنسان ما يسدُّ به حاجته ويُقبل على العيش فيها ويأخذ منها ما يقيم به حياته ليس أكثر من ذلك حتّى يؤدّي الدور الذي أُوكل له، ويؤدّي المسؤوليّة الملقاة على عاتقه، فإذا أدت الزينة هذا الدور للإنسان فهي محمودةٌ، وغير ممنوعةٍ على الناس كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]. وفاعلها يوصف بالحكمة لأنَّ غرضه لا يتمُّ إلَّا بها، لذا نسب التزيين إلى الله في بعض الآيات كالتي تقدّم ذكرها.

وأمَّا إذا كانت الزينة هي المطلوب الأساسي للإنسان ويصرف كلَّ عمره في طلبها والحصول عليها فهنا تكون هذه الزينة مذمومةً لأنَّها أصبحت غايةً وليس وسيلةً من أجل التحرّك لسدِّ النقص، بل يتصّور الإنسان أنَّ كماله في الحصول عليها، فيفني عمره للحصول على الأموال والأولاد، لذا يقول سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ*أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]. والزينة بهذا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٣١.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

النحو ممنوعةٌ على الإنسان ومنهيٌ عنها كما قال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1]. فمن يَقْصُر نظره على زينة الحياة الدنيا فقلبه غافلٌ عن ذكر الله ومفرِّطاً في جانب الحقِّ سبحانه وتعالى، والزينة في هذا المورد إنَّما تكون ممنوعةً على الإنسان لأنَّها توقفه عن طلب الكمال الحقيقي، لأنَّه يعتقد أنَّها هي الكمال وليس ورائها كمال.

وبعد إتّضاح أمر الزينة والتزيين نأتي إلى أهمِّ وسيلةٍ من وسائل الشيطان التي يستعملها لإضلال بني آدم وانحرافهم وهي التزيين، فكثيرٌ من الآيات ذكرت تزيين الشيطان للإنسان، جُمعت في هذه الآية : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. فكلُّ الأُمم كان المزيّن لإعمالهم هو الشيطان، وغير هذه الآية كثيرٌ كما سوف نقرأ ذلك إن شاء الله تعالى.

إذا لم نغفل عمّا تقدّم قبل قليل من أنَّ هناك بعض الأشياء في نفسها حسنةٌ وجميلةٌ، سوف نستنتج أنَّ الشيطان لا يحتاج أن يقوم بتزيينها، أوّلاً لأنَّه من تحصيل الحاصل فإنَّ الجميل مستغني بنفسه عن الرتوش والطلاء لتجميله، وثانياً ليس من غرض الشيطان أن يحثَّ الإنسان ويدفعه إلى الفعل الجميل، وإنَّما وظيفته تنميق القبيح وتحسينه ليكون مقبولاً ثمَّ يحثَّ على ارتكابه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[3]. فالأفعال الحسنة مطلوبةٌ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٢١.

للإنسان بذاتها من دون حثٍّ عليها، وهي تضفي كمالاً على النفس الإنسانيّة وترقيها في مدارج الفضيلة والرفعة، وهذا ما لا يريده الشيطان للإنسان.

فالشيطان يزين القبيح من الأفعال ليخطف بريقها نظر الإنسان ويقع في ارتكابها، فيرجعه بذلك خطوةً إلى الوراء والحضيض بدل التقدّم والارتقاء.

وأوّل تزيينٍ قام به الشيطان مع أبينا آدم وأُمِّنا حواء حيث أنَّ الله أمرهما أن لا يقربا الشجرة، لأنَّ الأكل منها سيكون سبباً لخروجهما من الجنّة ولشقائهما وعنائهما، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[1]. فهو قد زيّن لهم فعل الأكل وقال لهما إذا اردتم الخلود والملك الدائم فكلوا من هذه الشجرة، وأقسم لهما على أنَّه ناصحٌ لهما، حيث قال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[2].

إن قلت: ألم تذكر في ما مرَّ أنَّ جميع الأشياء حَسَنَةٌ لأنَّها من فعل الله؟ فأيُّ شيءٍ يكون قبيحاً حتّى يزيّنه الشيطان؟

قلت: نعم، جميع الأشياء حَسَنةٌ جميلةٌ، وكلامنا لا يتعلّق بذوات الأشياء وإنَّما بأفعال الإنسان، وأفعاله بالنسبة له – وليس مطلقاً – منها ما هو قبيحٌ ومنها ما هو حسنٌ، والقبيح هو الذي ليس كمالاً للنفس الإنسانيّة وإنَّما هو نقصٌ لها، فما هو كمالٌ لها، فالإتيان به حسنٌ وما يوجب لها النقص فهو قبيحٌ بالنسبة لها، والشيطان

---

(١) سورة طه، الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف، ٢٠ ـ ٢١.

يخدع الإنسان يغريه بفعل القبيح وهو يظن أنَّه حسنٌ، فلو علم بحقيقته وقبحه فلا يقدم على فعله.

وأفعال الإنسان على قسمين، أفعالٌ جوانحيّةٌ وأفعالٌ جوارحيّةٌ، والمقصود من الأفعال الجوانحيّة هي التي تقع داخل النفس من قبيل الأفكار والمعتقدات والآراء، وحتّى الأخلاق بنحوٍ من الأنحاء هي من الأفعال الجوانحيّة، وأمَّا الأفعال الجوارحيّة فهي ما يقوم بها الإنسان من خلال أعضائه وجوارحه البدنيّة، وكلا الفعلين يقع فيه التزيّن من قبل الشيطان، ونحن سنقف قليلاً عند كلا القسمين لنرى كيف يقوم الشيطان بتزيين القبيح منهما وجعله مقبولاً للنفس.

وقبل الدخول في ذلك البحث، نود أن نستذكر شيئاً تقدّم ذكره في معنى التزيين، وهو أنَّه قد يكون الشيء حسناً وجميلاً ولكن حسنه وجماله خافياً لسببٍ من الأسباب، وإزالة هذا الخفاء عنه يدخل في دائرة التزيين، وله شواهدٌ كثيرةٌ في حياتنا اليوميّة فكم من جهات الحسن في كثيرٍ من الأشياء نجهلها فلا تكون مطلوبةً لنا ثمَّ عندما نكتشفها نسرع إلى فعلها أو اقتنائها، من قبيل الأطعمة والأشربة والأدوية والآلات التي نحتاج إليها في حياتنا اليوميّة، لذا تستعمل الدعاية والترويج لها من خلال بيان وجه الحسن فيها والفائدة، فنلتفت إلى حسنها ومنفعتها لنا فنطلبها، والأُمور المعنويّة تحتاج أن تبيِّن وجوه الحسن فيها لأنَّها تخفى على كثيرٍ من الناس وهذا التبيين يسمّى تزييناً، ولكن لا بمعنى أنَّ هذه الأُمور ليست حسنةً في ذاتها فنقوم بضمِّ الأمر الحسن إليها لكي نظهرها بمظهرٍ جميل فليس الأمر كذلك، لذا نسمع قول الله سبحانه يقول: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ

إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]. فالإيمان هو زينٌ في ذاته، ولكن قد يخفى زينه على بعض الناس.

نأتي الآن إلى الأفعال التي تقع في الجانب الداخلي من الإنسان، وهو الجانب المهم الذي من خلاله تتبلّور النفس الإنسانية ويتشكّل وجودها، وتكون هي البنية التحتيّة للشخصيّة الإنسانيّة، وما فوقها متفرّعٌ عليها من مواقفٍ وسلوكٍ وعملٍ، فلا بدَّ من التأنّي في تبنّي المعتقدات الدينيّة والمذاهب الفكريّة ووضعها تحت معايير صارمةً لمعرفة حقّانيتها، فإنَّ ميدان الشيطان الأول هو هذا المجال، فإذا تمكّن من جعل الفرد يتبنّى معتقداً منحرفاً فإنَّ ذلك المعتقد يوجّه فعل الإنسان لعمل الشر ويكفي الشيطان عناء تزيين كلِّ عملٍ على حده، لأنَّه يتوافق مع معتقده فيأتي بالفعل ويراه مناسباً له، هذا مضافاً إلى أنَّ مدار النجاة في الآخرة يبتني على الاعتقاد الحق، وهذا ما لا يريده الشيطان، لا يريد أن ينجو الإنسان من العذاب ويبقى هو لوحده فيه، لذا يبذل كلَّ الجهد في سبيل انحراف الإنسان عقائديّاً وفكريّاً.

والشيطان في هذا المجال له عدَّة طرق ليُضِلَّ الإنسان في فكره وعقيدته، فهو أوّلاً يسعى لجعل الإنسان يجحد وجود الإله ويكفر به، كما قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. وفي هذا الطريق تدخل الأفكار الإلحاديّة واللادينيّة بكلِّ مذاهبها على مرِّ الزمان، وتلبس في كلِّ عصر لبوس ذلك الزمان، ويزيّنها الشيطان كما يتماشى قبولها عندهم ففي مثل زماننا تأتي مثل دعوات موت الإله، وإقصاء الدين عن كلِّ

---

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦.

مرافق الحياة، فمن يرفض فكرة الإله والدين هو متحرر وتقدمي وعقلاني وما شابه ذلك من المفاهيم البرَّاقة التي يخدع بها الشيطان اصحاب العقول الخاوية، فإن تمكّن من ذلك فقد وصل لمراده، واكتسب أعوان يعضدونه في الترويج للكفر والإلحاد.

وإن لم يتمكّن من ذلك يقول له أنَّ هناك خالقٌ له وللكون ولكن معه شريكٌ إن لم يكن في الخلق فهو شريكٌ في تدبير هذا العالم، وكلاهما يستحق العبادة، كما حكى ذلك القرآن قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فهذه الأرباب شريكةٌ لله في إدارة الخلق كما يزعمون، من دون أن يعتمدوا على برهانٍ أو دليلٍ لإثبات مدَّعاهم.

فإن لم يستطع أن يقنع الإنسان بهذا أيضاً، قال له وإن كان الخالق والمدبّر واحدٌ فلا يمكن للبشر أن يتّصلوا به فلا بدَّ له من وكلاء وهم الملائكة أو الجن أو الأرواح أو الأصنام وما شاكل ذلك، فتُوجَه العبادة لهؤلاء، لا لكونهم خالقين أو مدبرين بل لأنَّهم شفعاء ووسطاء بين الناس وخالقهم، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١]. وتدخل في هذا الطريق كلَّ الديانات الوثنيّة قديماً وحديثاً، وهي كثيرةٌ جداً كأغلب ديانات الهند والصين وغيرهم، وأنت إذا علمت أنَّ الهند والصين يقرب تعدادهم من نصف العالم تعلم جيداً استحواذ الشيطان على أكثر بني آدم.

وحتّى إذا تبَّنى الفرد معتقداً حقّاً يتدخّل الشيطان في تفاصيل ذلك المعتقد، ويجعله يقبل تفاصيل باطلة من خلال تزيّنها له بأنَّ معتقده يقتضي هذه التفاصيل، فلا مجال لرفضها، ومن هنا نشأت المذاهب المتعدّدة في الدين الواحد، فلو راجعنا الأديان السماويّة الكبرى الثلاثة اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، نجد في كلِّ دينٍ منها مذاهب متعدّدة لم تكن في الصدر الأول من زمن تلك الديانة وفي زمن ذلك النبي، كما حكى عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]. فهل يعقل أن تكون كلَّ المذاهب في الدين الواحد على حقٍّ مع اختلافها وتناقضها في مسائل جوهريّة؟

هذا حال بني آدم من حيث المعتقدات والمذاهب والأفكار، أو قل الأعمال الجوانحيّة، ومنها يعلم صدق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[1].

فلو كان الحقُّ والباطل واضحين جليين لرأيت أغلب الناس يتبعون الحقَّ في أكثر مواقفهم، ولرأيت أصحاب الباطل قلّة، ولكن هناك خلطٌ لأوراق هذا بذاك وتزين الباطل بطلاء حقٍّ وتزويقه ليسهل قبوله عند الناس، كما حكى الله سبحانه عن أهل الكتاب حيث قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وأمَّا بالنسبة إلى الأعمال الخارجيّة التي يقوم بها الإنسان فهي تبتني في أغلبها على معتقداته كما قلنا، لأنَّ أكثر أفعاله تقوم على حساب المصالح المفاسد، فهو حينما يريد أن يقوم بعملٍ يخضعه للميزان المذكور ليعرف هل ذلك الفعل يعود بالمصلحة عليه فيأتي به أو أنَّه يجلب له المفسدة فيتركه، ثمَّ بعد ذلك يتخذ الموقف يفعل أو لا يفعل، هذا إذا لم يكن النظام العقائدي والفكري يحدِّد للفرد الموقف من حيث الفعل والترك، فيرجع الإنسان لمرجحات أُخرى لمعرفة فائدة الفعل، ويكون للشيطان مدخلٌ هنا حيث يضفي على الفعل طابع المصلحة والمنفعة وهو في واقعه مُضِرٌ ومُفسدٌ للإنسان حتّى يغيره بالقيام به، وإنَّما قلت ليس للنظام العقائدي والفكري تحديداً للموقف تجاه الفعل، لأنَّ هناك من الناس من ليس له معتقد أو له ولكن معتقده لا يبين له الموقف من كثيرٍ من الأفعال التي يريد القيام به فمثل هذا الشخص

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧١.

يمكنه أن يخضع الفعل للنظام العقلي أو العقلائي أو الأخلاقي لتحديد موقفه من الفعل سلباً أم ايجاباً.

في سرِّ صدور الأعمال الحَسَنَةِ من الضالّين

ولكن في كلِّ حالٍ من الأحوال فإنَّ مثل هذا الفعل الذي خضع للميزان العقلي والعقلائي والأخلاقي لا ينفع الإنسان إلَّا في حياته الدنيويّة – هذا فيما إذا كان في الفعل مصلحة – لأنَّ الفعل لا يتكئ على عقيدةٍ حقَّةٍ فيكون كسرابٍ بقيعةٍ لا واقع له، ولا يهم الشيطان تزيّن مثل هذا الفعل لأنَّ هذا الشخص فاسد العقيدة ومع فساد العقيدة لا ينفع العمل، وهؤلاء الضالون في عقيدتهم لا يقبلون هذا القول وهو أنَّ عملهم لا ينفعهم وأنَّه ليس له قيمة بل يعتقدون أنَّ أفعالهم جيدة نافعة لهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[1]. لذا لا يبذل الشيطان كثيرَ جهدٍ في تزيين أعمال الكافرين، نعم يبذل جهداً كبيراً مستمراً في تزيين عقائدهم الفاسدة.

ومن هنا قد يتّضح سر أنَّ كثيراً من أفعال أهل المعتقدات الفاسدة حسنةٌ، بخلاف أعمال أهل الدين الحق قد تكون قبيحة، لأن الشيطان لم يستطع أن يدخل لهم من خلال معتقدهم فجاءهم من طريق الفعل وزيّن لهم الأفعال القبيحة وبذل

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٦.

جهداً كبيراً في ذلك، ولكن مهما فعل ذلك سيرجع منه لأنَّه لا ينسجم مع ايمانه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[2].

فالشيطان يُزيِّن للمؤمنين الأفعال القبيحة فيرتكبوها ولكن ما يلبث أن يزول التزيين فتتّضح حقيقتها للمؤمن فيعلم أنَّه خالف مقتضى ايمانه وأنَّه ارتكب خطيئةً فيسرع بالندم ويستغفر ربَّه من جرّاء فعله، فيجد ربّاً غفوراً رحيماً عطوفاً على عباده، فيعود عليه بالعفو والمغفرة والرّحمة، هكذا ينبغي للإنسان المؤمن أن يرجع مسرعاً إلى ربِّه عن خطيئته ولا يصير عليها، فتتمكّن الخطيئة منه وتُحيط به فتسلب الإيمان منه، كما قال سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

وفي الغالب الشيطان حينما يُزيِّن للمؤمنين بعض الأعمال لا يقول لهم أنَّ القيام بهذا من الايمان من قبيل الزنا والكذب والربا وغيرها من الاعمال، وإنَّما يدخل لهم بمداخل أُخرى، يمكننا أن نضرب بعض الأمثلة لها في بعض المعاصي فيتّضح الحال في البعض الآخر، وهي كما يلي:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨١.

منها: قتل النفس المحترمة، وهو من كبائر الذنوب ولا يحقُّ لأحدٍ قتل إنسانٍ إلَّا بمسوِّغٍ تفوق مصلحته مصلحة بقاء الإنسان المقتول، أو يدفع مفسدة بقائه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. هذا في مطلق النفس كيف إذا كان المقتول مسلماً أو مؤمناً؟! وتوَّعد على قتل المؤمن أغلظ الوعيد حيث قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2]. ولكن مع ذلك يقع عندنا في بلاد المسلمين كثيرٌ من القتل لعدَّة مسوغات تذكر ليس لها في الدين من أساس، منها بسبب الغضب الناتج من المشاجرات، ومنها بدعوى غسل العار، ومنها الخوف على الدين من بعض الفرق أو الأشخاص، ومنها أخذ الثأر من غير القاتل تنكيلاً بالقاتل، ومنها اجهاض الأجِنَّة لخوف الفقر أو لعدم القدرة على التربية، وغيرها كثيرٌ جداً من الأسباب الواهية التي لا يقبلها عقلٌ ولا دين، ولكن ينخدع الإنسان بها حينما يزيَّن له الشيطان هذا الفعل ويغريه به.

ومنها: الزنا وهو من الكبائر أيضاً قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[3]. ولكنه منتشرٌ في البلدان الإسلاميّة علنيّاً وسريّاً، ويُزيَّن الشيطان هذا الفعل من خلال اللذّة الكبيرة الموجودة في الجماع، ولإيقاع بني آدم في هذا الفعل يقوم بعدِّة مقدّمات، منها إخراج المرأة إلى مجتمع الرجال، وفي مثل أزماننا دعوات المساوات بين الرجل والمرأة وإعطاء حقوقها ورفع الظلم عنها

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

وتكافئ الفرص بينها وبين الرجل، كلّ ذلك من أجل جعلها بمتناول أيديهم، ومنها اغرائها بتزيين نفسها حتّى تكون محطّ إعجاب مجتمع الرجال ولفت أنظارهم إليها، ومنها إظهار مفاتنها بترك الحجاب وإبراز أجزاء مثيرة من بدنها، وهذه المقدّمات سببٌ مهمٌّ وأساسيٌّ في شيوع الزنا، لأنَّ الغريزة إذا أُثيرت من الصعب السيطرة عليها والتحكّم فيها، لذا الشارع منع هذه المقدّمات التي يؤدّي إلى إثارة الغريزة، كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

والمرأة من أقوى أسلحة الشيطان يضلّها أوّلاً، ومن ثمَّ يستعملها لإيقاع الرجال في شراكه، وشهوة النساء أقوى الشهوات ومقدّمة عند الإنسان على سائر شهواته، كما يبيّن ذلك القرآن الكريم حيث يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2]. فالشيطان يُزيِّن حُبَّ الشهوات وفي مقدّمة ذلك النساء.

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

والخلاص من هذا التزيين، هو بغضِّ البصر كما أمر الله سبحانه وتعالى به، والإبتعاد عن كلِّ ما يثير الغريزة الجنسيّة، التي أصبحت جزءاً مهمّاً من الأعلام، ومن الحضارة الغربيّة الجنسيّة، وتصديرها لباقي الشعوب.

ومنها: شرب الخمر وهي من الكبائر أيضاً، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. يزيّن الشيطان هذا الرجس للإنسان، بدعوى اللذّة والإنتشاء، ومواكبة العصر والتحضّر والثقافة وما شاكل ذلك.

ومنها: أكل الربا وهو أيضاً كبيرة من الكبائر، يقول الله تعالى عنه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

ومنتشرٌ في البلدان الإسلاميّة عن طريق المصارف والبنوك، يُزيَّن لهم الشيطان هذا الفعل بعنوان الإيداع والحصول على أرباحٍ من دون مشقّة وأنَّ أمواله محفوظةٌ من التلف والسرقة ومضمونةٌ له.

ولا يسعنا ذكر جميع الكبائر والدخول في تفصيلاتها وكيفيّة تزيّنها من قبل الشيطان للإنسان وإنَّما اكتفي بذكر بعض ما ورد منها في الأخبار حيث ورد أنَّ الكبائر هي: قتل النفس التي حرّم الله تعالى، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الميتة والدم ولحم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به من غير ضرورة، وأكل الربا بعد البيّنة، والسُحت، والمَيسر وهو القمار، والبخس في المكيال والميزان، وقذف المحصنات، واللواط، وشهادة الزور، واليأس من رَوح الله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمّة الله، ومعونة الظالمين، والركون إليهم، واليمين الغموس، وحبس الحقوق من غير عسر، والكذب، والكِبَر، والإسراف، والتبذير، والخيانة، والاستخفاف بالحجِّ، والمحاربة لأولياء الله، والاشتغال بالملاهي، والإصرار على الذنوب، وهناك غيرها من الذنوب.

في كلِّ المحرَّمات يجد الشيطان له مخارجاً متعدّدة يستعملها واحداً تلو الآخر ليرى مَنْ منها ينفع لتزيَّن مثل هذه المعصية واخفاء قبحها واظهارها بمظهرٍ حَسَنٍ للإنسان حتّى يوقعه فيها.

التزيينُ لا ينطلي على الكلِّ

في كل مجالٍ من مجالات الصناعة هناك ذووا خبرةٍ في تلك الصناعة من الصعب خداعهم، لكونهم أصحاب مهاراتٍ وحذقٍ في صناعتهم، أمَّا غير أهل تلك الصناعة والجاهلين بأسرارها من السهل تضليلهم، لو جئنا إلى المشتغلين بالذهب من الصاغة وخبراء الأحجار الكريمة مثلاً، لا يمكنك أن تخدعهم بذهبٍ من عيار ١٨ على أنَّه عيار ٢٤ هذا فضلاً على أنَّك تعطيه معدناً آخر وتقول له هذا ذهبٌ وهو ليس بذهبٍ فإنَّه سيسخر منك، وهكذا في جودة الأحجار ودرجة صفائها، في الأعمال هناك أيضاً أُناسٍ ذوي خبرة يعلمون حقيقة الفعل هل نافعٌ أو ضارٌّ حَسَنٌ ام قبيحٌ، وكم هي درجة نفعه وحسنه وكم درجة إضراره وقباحته، وليس من السهل خداعهم بتزويق الأفعال لهم وتزيينها، مهما حاول الشيطان ذلك، فهم ينظرون بعين البصيرة

في حقيقة كلِّ فعلٍ هل فيه رضاً لله أم فيه سخطٌ، ويجعل الله لهم نوراً يكشف لهم حقيقة الطريق، كي لا يقعوا في مطبّاته وحفره، فانظر إلى قول الله سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. يقول هل من كان يمشي في نورٍ ساطعٍ وطريقٍ واضحٍ مثل مَنْ يمشي في ظلامٍ متراكمٍ ومُتَعَدِدٍ حالك؟! فالذي يمشي في الظلمات هو الذي زيَّن له الشيطان فكيف يمكنه أن يميِّز طريقه؟ وكيف يرى ما في الطريق من أخطار؟

فأنبياء الله ورسله لا تنطلي عليهم خدع الشيطان لأنَّهم على هدىً من ربِّهم وبيِّنةٍ ونور، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[2]. فالناس عُمِّيت عليهم الحقيقة ومن قام بتعميتها هو الشيطان لكي يلبس الأُمور عليهم، والمفروض على الأعمى أن يقول للبصير خذ بيدي وأوصلني إلى غايتي، لا أنَّه يعانده ولا يرفض اتباعه، فكيف يمكنه السير والوصول؟ هكذا حال سائر الناس مع أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة والسلام، هم قد فتح الله أبصار قلوبهم وأنار لهم طريق قربه ومرضاته، فمن أراد ذلك فلا بدَّ له أن يسير خلفهم ويتّبع هديهم، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]. فالطريق

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

إلى معرفة زيف حُسْن الأفعال ونفعها، وكشف بريقها الخادع هو بتقوى الله التي ينجلي معها رين القلب وتصقل مرآته وتنعكس بها الحقائق كما هي، قال جل مجده: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

أمَّا مَنْ يرفض دعوة الأدِّلاء على الله فلا بدَّ من ضلاله وتيهه في السير وتتملّكه الحيرة وتتلاعب به الشياطين، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

مع أنَّ كلَّ شيءٍ في هذا الوجود آيةٌ وعلامةٌ تشير إلى وجوده سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته وعظمته، ولكن لا تبيَّن كيفيّة المسير والوصول إليه، ولا يمكن الوصول إليه إلَّا أن يرشدنا هو إلى الأفعال التي تقرّبنا منه، فلو أمكن السير بلا دليلٍ لما أوجب على نفسه سبحانه بعث الأنبياء وإرسال الرسل، إكمالاً لحكمته وتتميماً لنعمته على عباده.

ومن هنا ينكشف لنا سرُّ عصمة أنبياء الله ورسله، فإنَّ من يعرف السُّمَ لا تغرُّه حلاوة الشراب، ومن يتيّقن الهلكة في فعل لا تستهويه لذّة ساعةٍ، فهم أدرى الناس بمضارِّ الأفعال ومنافعها، فكيف يقدمون على التفكير بها فضلاً عن الهمِّ بفعلها؟! فهل هناك أحدٌ منّا يقدم على التفكير في شرب السُمِّ أو القاء نفسه من شاهق؟! المعاصي بالنسبة لهم كشرب السُمِّ بالنسبة لنا كما أنَّا لا نقدم على شرب السُمِّ إلَّا في حال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

الجهل به، هم كذلك لا يقدمون على ارتكاب المعاصي ولا يجهلونها لأنَّهم لا ينطلي عليهم تزيين الشيطان لها.

إن قلت: الم تذكر قبل صفحاتٍ أنَّ الشيطان زيَّن فعل الأكل لأبينا آدم وأوقعه في المعصية فكيف استطاع أن يخفي حقيقة الفعل عن آدم؟ وإذا تمكن من ذلك مع آدم فَلِمَ لا يتمكّن مع باقي الأنبياء عليهم السلام؟

قلت أولاً: إنَّ وقوع آدم في المعصية إنَّما هو بسبب تركه ما هو أولى له، وليس ذلك معصيةً ومخالفةً لأمر المولى، فالتزيين للايقاع في مخالفة الأولى، لا يضر بمقام النبوة.

وثانياً: إن التزيين كان في الجنّة حيث كان آدم هناك، وليس على أرض التكليف، كما هو الحال مع الأنبياء عليهم السلام.

وثالثا: إنَّ الشيطان يزين الأعمال للأنبياء عليهم السلام، ولكنَّهم يتبصرون بذلك التزيين ولا ينخدعوا به، لكون تزينه ليس لاغرائهم بترك الأولى، وإنَّما للوقوع في معصية المولى، لذا تظهر لهم حقيقة الفعل، وهذا هو معنى العصمة، فإنَّ المعصوم يرى قذارة المعصية كما نرى نحن قذارة الغائط. فآدم عليه السلام لا يختلف عن باقي أنبياء الله عليهم السلام من حيث أنَّ الشيطان لا يمكنه اغرائهم بتزين الفعل وايقاعهم في المعصية، وما حصل مع آدم عليه السلام فهو ليس معصيةً وليس في دار التكليف أصلاً.

الوَسْوَسَةُ

يقول الراغب في مفردات القرآن في باب وسوس: الوسوسة: الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس، وهو صوت الحلي، والهمس الخفي. قال الله تعالى: ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾[1].

الوسوسة من الأساليب المهِّمة للشيطان، بل لعلّها أهمُّ وسيلةٍ له يتمكّن بها أن يوصل ما يريده إلى ذهن الإنسان من دون أن يشعر، فإنَّ في الأعمّ الأغلب تَحرُّك الإنسان وفعله الخارجي يبتني على ما يجول في خاطره من أفكارٍ وصورٍ علميّةٍ هي التي تحركه لإنجاز أفعاله، والإنسان عادةً لا يدري كيف تأتي تلك الصور العلميّة وتقع في ذهنه، ويفكّر من خلالها بما يريد أن يفعله، بل في بعض الأحيان يتعجّب كيف تَذَكَّرَ أو خطرت على باله بعض الأمور أو الأحداث من دون أن يعمل فكره في تَذَكُّرها، وليس مستغرب أن تكون تلك الصورة العلميّة أو الفكرة في الذهن هي ليس من داخل الشخص وذاته، فإنَّ الصور الحسيّة تصل إلى الذهن عن طريق الحواس الخمس بمجرد تعرُّض الحاسّة لمدركٍ تنقله قسراً إلى الذهن، فإنَّ العين لمَّا تكون سليمةً وتواجه الأشياء تنقل صورها حتّى لو لم يكن الشخص قاصداً النظر إلى تلك الأشياء، وأوضح مصداقٍ على عدم الاختيار في بعض الأفكار هو المرض النفسي المعروف بالوسواس القهري.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

وفي الأزمان المتأخّرة بَحْثوا أمر إرسال الأفكار واستقبالها بحثاً واسعاً في علم البراسيكلوجي في قسم التلباثي منه وانتهوا إلى نتيجةٍ أنَّه يمكن ارسال واستقبال الأفكار واثبتت التجارب ذلك، وكذلك الاتصالات الحديثة تُسِّهل علينا كثيراً تصوُّر الإرسال والاستقبال حيث أنَّ أجهزت الاتصالات النقّالة تنقل المعلومات المرئيّة والمسموعة والمقروءة للبعيد والقريب، ولم يكن يخطر في بال إنسانٍ قديماً مثل هذه التقنيّة، وأجهزة الاتصال مهما تطوّرت وبلغت الذروة في تقدّمها العلمي فهي ليس بشيءٍ إلى جنب ذلك الجهاز المعقّد وهو دماغ الإنسان.

والبحث القرآني يوضّح لنا أنَّ هناك إلقاء أفكارٍ في الجهاز الادراكي للإنسان إمَّا تكون منشأ لفعل الخير وإمَّا تكون منشأ لفعل الشرِّ، يقول الله سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]. فهنا إلقاءٌ من قبل الله سبحانه للرعب في قلوب الذين كفروا ومن المعلوم أنَّ القلب المرادُ منه مركز الشعور والإدراك الحضوري، وبعكس هذا الالقاء قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2]. هناك القاءٌ للرعب والالقاء يفيد زيادةً في المفاجئة وهنا إنزالٌ للسكينة والإنزال قد يعطي زيادةً في الهدوء والاستقرار، وكلا الفعلين موضعهما القلب وفاعلهما الله سبحانه، كما أنَّ هناك إلقاءٌ من المَلَكِ كما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١]. هناك أيضاً إلقاءٌ من الشيطان يقول الحقّ سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

إذن هناك أفكارٌ وأحوالٌ علميّةٌ توجد في الإدراك من خارج ذات الإنسان وهو لا يدري ما هو سببها وما هي الغاية من إلقائها في خلده، والوسوسة هي كذلك إلقاءٌ من الشيطان لتحفيزه على فعل ما يبعده عن الله وعن سعادته.

الوحيُ والإلقاءُ والوَسْوَسَةُ

القرآن الكريم يُبيِّن أنَّ هذه الأفعال الثلاثة يقوم بها الشيطان للتأثير على فعل الإنسان وسلوكه، ذكرنا الآية التي تتحدّث عن الإلقاء وعن الوسوسة، وأمَّا الوحي فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٣]. فما هو الفرقُ بين هذه الأفعال الثلاثة؟

يقولُ الراغبُ في مفرداته في مادّة وحى: أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجردٍ عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

وتحت مادّة لقى يقول : والإلقاء: طرح الشيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صار في التعارف اسماً لكلِّ طرح.

وتحت مادّة وسوس يقول: الوسوسة: الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس، وهو صوت الحلي، والهمس الخفي.

وتحت مادّة لَهِمَ قال: الإلهام: إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى، وجهة الملإ الأعلى، وبما أنَّ الإلهام لا يقوم به الشيطان لم نضعه في قبال الثلاثة، ولكن لا يفترق عنها بأنَّه إلقاء أمرٍ في الجهاز الإدراكي للإنسان.

والجدير بالبحث هو كيف يمكن للشخص معرفة مصدر ما عنده من أفكارٍ وخواطر؟ حتّى لا ينساق معها بسرعة فيتلاعب به الشيطان، خصوصاً في بحث التزيين الذي هو أسلوبٌ آخر من أساليب الشيطان قلنا أنَّه يُزيِّن الأفعال من خلال القاء المعلومات الكاذبة في ذهن الإنسان، من قبيل إغواء آدم حيث قال له: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1]. فآدم منهي عن الأكل من الشجرة ولكن من خلال الوسوسة أغراه للأكل منها وأوقعه في ذلك، لابدَّ لكلٍّ منّا أن يتأمّل في الفعل قبل حصوله ويرى هل أنَّ فيه مخالفة لأحكام الله أم لا، فإنَّ الفعل الصادر منّا لابدَّ أن يدخل تحت تلك واحداً من الأحكام الشرعيّة الخمسة الوجوب أو الحرمة أو الاستحباب أو الكراهة أو الاباحة، فإذا كان الفعلُ واجباً لابدَّ أن لا ينساق الفردُ وراء الأفكار التي تبرّر له ترك ذلك

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٠ ـ ١٢١.

الفعل بأيِّ حُجَّةٍ كانت، وإن كان الفعلُ محرَّماً لابدَّ له أن لا تغرّه التزويقات لتحسينه وبيان فائدته لأنَّه لو كان حسناً لما حرَّمه الله بحالٍ من الأحوال.

وليس هذا فحسب بل نحتاج إلى أن ننظر في الدوافع والأفكار التي تدعو إلى الفعل والترك خارجاً وليس فقط إلى الأفعال، فإنَّ بعض الأفعال وإن كانت حسنةً وجميلةً ولكنَّ الدافع من ورائها قبيحٌ وسيءٌ، فقد تجد في نفسك أفكاراً تدعوك لفعل أمرٍ حسنٍ ولكنَّ الغاية من فعله هو الوصول لأمرٍ قبيحٍ، وكم من الأفعال هي كذلك مع شديد الأسف، وهنا يكمن خطر الوسوسة، فالشيطان ليس دائماً يدعوك لفعل القبيح مباشرةً وإنَّما يستدرجك لفعل أمرٍ حُسْنَهُ ظاهرٌ ولكن يكون مقدّمةً لفعلٍ مستقبحٍ، بل قد نفعلُ أفعالاً حسنةً بدوافع حسنةٍ ثُمَّ نبطلها بإلحاقها بأمورٍ سيّئةٍ من قبيل: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[1]. فنحتاج إلى التأمّل جيداً في أفكارنا ودوافع الأفعال لكي لا نقع في مصيدة الشيطان.

واعلم أيضاً أنَّه قد يتدخّل حتّى الطاعات والأفعال المقربة إلى الله، فإنَّها بلا شكّ تتفاضل فيما بينها بعضها مقرِّبٌ أكثر من البعض الآخر وأعظم ثواباً وهو حينما يرى أنَّه لا يمكن دفعك عن مثل هذه الطاعات يتدخّل في صرفك من الأكثر أجراً إلى الأقلِّ أجراً وقرباً من الله، والتمييز في هذا الباب صعبٌ جداً لأنَّه ليس كلُّ الطاعات يُعْرَفُ درجةُ ثوابها وتقريبها من الحقِّ سبحانه، فليس واحدٌ منّا إلَّا ومرَّ عليه أنَّه يَهُمَّ بفعل طاعةٍ معيّنةٍ ثُمَّ يخطر في باله أن يأتي بطاعةٍ أُخرى بدل الأولى فيترك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

الأولى ويأتي بالثانية، والحال أنَّ الثانية قد لا يعلم أصلاً أنَّ ثوابها أكثر من الأولى، فهنا لابدَّ أن نتنبّه لأيادي الشيطان الخفيّة في هذا الأمر.

الأَغْواءُ

حتّى يتبيّن بشكلٍ واضحٍ معنى الأغواء لابدَّ في المقدّمة بيان معنى الهدى والضلال والرُشد والغيّ وما هو الفرق بينها، فالهدى هو السير في الطريق الموصل للغاية، والضلال هو سلوك طريقٍ غير موصلٍ للغاية، والرُشد هو اصابة وجه الأمر، والغيُّ تارةً يراد منه مقابل الرُشد وهو إظلام الأمر والجهل به، وأُخرى يراد منه فَسَادَ في الشيء.

ورد في مقاييس اللغة ج٤ ص٣٩٩:

(غَوِيَ) الغين والواو والحرف المعتلّ بعدهما أصلانِ: أحدهما يدلُّ على خِلاف الرُّشد وإظلام الأَمْر، والآخرُ على فسادٍ في شيء.

فالأوَّل الغَيّ، وهو خلاف الرُّشد، والجَهلُ بالأمر، والانهماكُ في الباطل. يقال غَوى يَغْوي غَيًّا....والأصل الآخر قولهم غَوِيَ الفصيل إذا أكثر من شرب اللبن ففسد جوفه. أنتهى

وذكر في الفرق بين الإرشاد والهداية: أنَّ الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتبيين له، والهداية هي التمكُّن من الوصول إليه.

والفرق بين الضلال والغي: أنَّ الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغاية و المقصد، و الغي هو العدول مع نسيان الغاية فلا يدري الإنسان الغوي ماذا يريد و ماذا يقصد.

فليس من الصحيح القول بترادف الرُشد والهداية، والضلال والغيّ، فاستعمالات القرآن دقيقةٌ لمن تدبّرها فإنَّه يقول قد تبيّن الرُشد من الغيِّ ولم يقل الهداية من الضلال، ويقول ما ضلَّ صاحبكم وما غوى فنفى الغيّ بعد أن نفى الضلال، فمن قال بترادفهما ليس له حجّةً على ذلك.

وبالتنبّه إلى ما ذكر يتّضح لنا أنَّ غاية الشيطان هي إضلال الناس ومن الوسائل التي يتوصّل بها إلى الإضلال الغواية، فالغواية وسيلةٌ والضلال غايةٌ وأحدهما غير الآخر جزماً، ونحن هنا نريد أن نتحدّث عن هذه الوسيلة من وسائل الشيطان لإضلال الناس.

في البدء لابدَّ من أن نلتفت إلى أنَّ هناك إصرارٌ وقَسَمٌ من الشيطان على إغواء الناس، حيث قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]. فهل يستطيع أن يَبُرَّ قسمه ويغوي الجميع إلَّا أشخاصاً قلائل أخلصهم الله سبحانه له؟ أم هذه أُمنيةٌ له فقط ولا يستطيع ذلك؟ وهو إنَّما يقسم على إغواء الناس لأنَّه يرى نفسه ضحيّة الإغواء كما يذكر القرآن الكريم حيث يقول: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]. فهل صحيحٌ أنَّ الله أغوى إبليس؟ وبسبب ذلك الإغواء طرد من جوار القدس والرحمة.

بمراجعة ما ذكرناه من معنى الغيِّ في الأصل الأول وهو إظلام الأمر نقول أنَّ الله أظلم الأمر على إبليس في قضيّة السجود لآدم حتّى يبتليه وتظهر حقيقة منزلته وطاعته لله سبحانه وتعالى ففشل في ذلك الاختبار، وإبليس أيضاً يريد أن يُظْلِمَ الأمر

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

على بني آدم حتّى يوقعهم فيما وقع فيه ويفشلون أيضاً، وإذا أردنا أن نحمل معنى الغيِّ على الأصل الثاني وهو الفساد فيكون المعنى أنَّ الله سبحانه أفسد حال إبليس بسبب معرفته سبحانه بباطنه وأنَّه متكبّرٌ على الحقِّ، فإبليس أيضاً يريد أن يفسد حال بني آدم ويجعلهم مطرودين من رحمة الله.

ففي كلا المعنيين إغواء الله لإبليس ليس قبيحاً، فإنَّ من حقِّ الله أن يختبر طاعة عباده بأُمورٍ يجهلون مصلحتها ليتبيّن مدى امتثالهم لأمر خالقهم ورازقهم، وإذا فشل بعضٌ منهم في ذلك الاختبار فليس من حقِّه أن يوجّه اللوم لله سبحانه وتعالى ويقول إنّي فشلت بسبب جهلي بمصلحة الطاعة فإنَّ هذا ليس بعذرٍ، وكذلك بالنسبة إلى الافساد لحال إبليس فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يفسد حاله من دون استحقاقٍ وإنَّما نتيجة الكبر والاستعلاء على أمر الله سبحانه وتعالى، فإغواء الله خالٍ من الذمِّ وهو حَسَنٌ على كل حال، إمَّا إغواء إبليس للناس فهو قبيحٌ على كل حالٍ لأنَّ غايته هو إبعاد الناس عن الله وإفساد أمر آخرتهم.

أمَّا إلى أيِّ مدى نجح في وعده بإغواء الناس أجمعين إلَّا عباد الله المخلصين؟

نقول: نعم، نجح في المهمّة وإن كان ليس بالمقدار الذي حدّده، والقرآن الكريم يثبت ذلك، فإنَّه قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١]. ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٢]. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٣]. ﴿يَعْرِفُونَ

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٠.

نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[١]. فليس هذه الآيات وحدها تشهد على نجاح إبليس في مهمّته بل الواقع يشهد له أيضاً فلو نظرنا في زمان البشريّة الحالي نجد أنَّ تعدادهم يفوق ستة مليار نسمة فكم منهم يؤمنون بالله ويطيعوا أمره؟ وكم منهم يتبعون أهوائهم؟ وكذا الحال في كلِّ زمانٍ تجد المؤمنين قلّة قياساً بغير المؤمنين.

ولكن مع ذلك نقول أنَّه لم ينجح بمقدار ما وعد، فإنَّه وعد أن يغوي الجميع باستثناء المخلَصين ـ بفتح اللام ـ وهم الذين أخلصهم الله له، وهم السابقون لمرضاة الله سبحانه وتعالى، والحال أنَّ الناجين من اغوائه أكثر من ذلك، فالذي يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكون من أهل النجاة وإن وقعت منه المعاصي والهفوات فإنَّ الله غفورٌ رحيم، والله سبحانه اشترط على الناس للخلاص من الشيطان أن يلتزموا بأمرين هما كفيلان بعدم تأثير الشيطان لمن التزم بهما وهما الإيمان والتوكُّل كما تذكر هذه الآيات المباركة: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[٢]. فالله سبحانه يقول إنَّه ليس له سلطانٌ على المؤمن المتوكّل على الله، وإنَّما يقتصر سلطانه على من تولاه وعلى المشركين، فهنا في هذه الآيات بيَّن الله سبحانه أنَّ دائرة التأثير على الناس من قبل إبليس وجنوده ليس هي بالسعة التي زعمها حيث وعد أن يغوي جميع الناس إلَّا المخلَصين، فالله سبحانه هنا يُكَذِّبُ زعمه وتوعّده.

---

(١) سورة النحل، الآية:٨٣.

(٢) السورة السابقة، الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠.

ومضافاً إلى ما ذُكِرَ لو كان الأمرُ مثل ما قال إبليس لما نجى من العذاب إلَّا المعصومين وهم أفرادٌ قلائل في الأُمم على مرِّ التأريخ، والحال أنَّ كلَّ من آمن بنبيٍّ زمانه وأطاعه هو من أهلِ النجاة، وهم المعبر عنهم بالقرآن الكريم بأصحاب اليمين، لذا نجد الفرق في تعبير القرآن الكريم حينما يُعبِّر عن السابقين يقول: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾[1]. وعندما يُعبِّر عن أصحاب اليمين يقول: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾[2]. فكلٌّ من السابقين وأصحاب اليمين قد نجى من إغواء إبليس مع فرقٍ بينهما، والآية تذكر أنَّ أصحاب اليمين ليس عددهم قليلاً بل هم ثلّة من الأولين وثلّة من الآخرين وهم يختلفون عن السابقين، فأهل السبق لهم مقام العصمة والإخلاص، وهم قلائلٌ كما تذكر الآية الكريمة، فإبليس أغوى كثيرٌ لكن ليس كما قال من أنَّه يغوي الجميع باستثناء المخلصين.

لنتحدث الآن عن بعض مَن وقع تحت إغواء الشيطان على ما يقُصَّه لنا القرآن الكريم حتّى يتضّح لنا كيف تتمُّ عمليّة الإغواء، أوّل من وقع في إغواء الشيطان هو أبينا آدم عليه السلام، يقول القرآن الكريم: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3]. ذكرنا في الفرق بين الضلالِ والغيِّ هو أنَّ في كليهما عدولٌ عن الطريق ولكن في الضلال يبقى ذاكراً للغاية التي من أجلها سلك الطريق، وأمَّا في الغيِّ فهو يخرج من الطريق وينسى

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.

(٢) السورة السابقة، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) سورة طه، الآيتان: ١٢٠ ـ ١٢١.

الغاية، فإبليس أنسى آدم الغاية وقال له إذا كنت تريد الخلود ومُلكٌ لا يبلى فكل من هذه الشجرة، فجعل الغاية له الخلود ودوام الملك فأغواه بذلك ونسي غايته، لذا قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1]. فهذه أوّل غواية حصلت.

والمشركون بالله وقعوا في غواية الشيطان لذا أوقعوا غيرهم من الناس بنفس ما وقعوا به، كما يقول الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[2]. والغريب في الأمر أنَّ إبليس لمّا غوى بسبب عدم سجوده لآدم أقسم على أنَّه كما وقع هو في الغواية سوف يوقع بني آدم، وهؤلاء من بني آدم حينما وقعوا في غواية إبليس صاروا ينتقمون من الآخرين بإغوائهم، فهم يتصرّفون كما تصرّف إبليس وأصبحوا شياطين مثله لكن هو شيطانٌ من الجنِّ وهؤلاء شياطينٌ من الإنس، ووظيفتهم واحدةٌ وهي غواية الناس وهدفهم واحدٌ وهو إضلال الناس، والسبب في ذلك هو أنَّهم وقعوا في الغواية فلابدَّ أن يثأروا لأنفسهم وينتقموا من الناس.

أمَّا بالنسبة إلى كيفيّة الوقوف أمام هذه الوسيلة من وسائل الشيطان فقد ذكرنا فيما مرَّ أنَّ هناك أمران ما إن تمسّك بهما المؤمن يكون بمأمنٍ من غواية أُولئك، الأمر الأوّل الإيمان، والثاني التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، كما أخبر هو جلَّ جلاله، وهو أدرى بما ينفع العبد وما يضرُّه.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٢) سورة القصص، الآيتان، ٦٢ ـ ٦٣.

التَسْويلُ والإمْلاءُ

هذه الوسيلة متفرِّعة عن التزيين، فالشيطان يُسَوِّلُ فعل المعصية بالتزيين، يقول الراغب في المفردات تحت باب سول: والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن، قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً [يوسف/١٨]، الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم [محمد/٢٥]. الإملاء: الإمداد، ومنه قيل للمدَّة الطويلة ملاوةً من الدهر، ومليٌّ من الدهر.

وعن الزمخشري: سوَّل سهَّل لهم ركوب العظائم من السول، وهو الاسترخاء. الكشاف ج٣ ص٥٣٧

لمَّا كان هناك كثيرٌ من العوائق في ارتكاب المعصية لكون المعاصي أمورٌ منكرةٌ في أغلب المجتمعات، بل قد تكون جرائمٌ تحاسب عليها القوانين الوضعيّة فضلاً عن الشرائع السماويّة، فيحتاج الإنسان في ارتكابها إلى جرأةٍ وتسهيلٍ لتلك العوائق والعقبات، وهنا يأتي دور التسويل من النفس أو من الشيطان، بمعنى أنَّه يُهوِّن أمر المعصية ويُسهِّل ارتكابها، حتّى لا يستعظم ذلك الفعل، والتسويل ليس فقط فعل الشيطان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[1]. وإنَّما في بعض الأحيان النفس تقوم بهذا الفعل حتّى لا يثقل عليها الجرم الذي تريد أن تقوم به، فالقرآن يَقُصُّ علينا في أُخوة يوسف أنَّ أنفسهم سوّلت لهم ذلك الفعل المنكر وهو الإنتقام من أخيهم، يقول الله

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٥.

سبحانه: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[1]. فهذا التسويل ليس من فعل الشيطان بل من أنفسهم وإنَّما الشيطان قام بفعلٍ آخر وهو النزغُ بينهم وهذه وسيلةٌ أُخرى من وسائله، أمَّا كيف سوّلت لهم أنفسهم هذا الفعل الشنيع وهو محاولة قتل أخيهم وهم أبناء نبيٍّ من أنبياء الله؟ يجيبنا القرآن على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[2]. أي أنَّ قربهم من أبيهم يعيقه وجود يوسف وحبّه فإذا أُزيح من بينهم يحضون بالقرب من أبيهم ويكونوا بعد هذا الفعل صالحين، هكذا سوّلت لهم أنفسهم هذه الجريمة.

إذن التسويل تارةً يكون من قبل النفس وأُخرى من قبل الشيطان لتهوين أمر المعصية.

وأمَّا الإملاء فهو الإمهال والمدُّ في الأجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٢) السورة السابقة، الآيات: ٧ ـ ٩.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

ومعنى إملاء الشيطان لهم هو مدُّه بكل ما يؤدّي بهم إلى الانحراف عن الصراط المستقيم من التزيين والإغواء والإغراء والوعود والأماني الكاذبة خصوصاً وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1].

والفرق بين إملاء الشيطان وإملاء الله سبحانه وتعالى أنَّ إملاء الشيطان يكون بالوعود الكاذبة والأماني الضالّة وليس اعطاءً حقيقيّاً، أمَّا إملاء الله فهو عطاءٌ حقيقةً يفتح عليه أبواب الرزق والنعمة في شتّى المجالات في العافية والأهل والأولاد والأموال ويوّفر له كلَّ ما يريد، وبالعادة لمَّا يغمر الإنسان بكثرة العطاء يتعلّق قلبه بالدنيا وينسى الآخرة ويقطع صلته بالله سبحانه وتعالى، وهذا إنَّما يكون بسبب كفرهم ونسيانهم لله سبحانه كما قال الله جلَّ جلاله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[2]. فهذا هو إمداد الله سبحانه وتعالى.

والوقوف في وجه هذه الوسيلة يكون بإلتفاتِ الإنسان إلى التسويلات سواءً كانت من النفس أو من الشيطان وينظر إلى حقيقة الفعل التي تنازعه الوساوس من أجل الإقدام عليه هل هو حسنٌ أو قبيحٌ وهل لله فيه رضاً ام فيه سخط الله سبحانه وتعالى ويتذكر عقاب الله سبحانه وتعالى بعد ذهاب لذّة ذلك الفعل.

وأمَّا الإملاء فعلاجه أن لا تخدعه الأماني والوعود الكاذبة وأن يعمل عمل الراحل من هذه الدنيا، ولا يُسوِّف توبةً أو يؤجّل عمل طاعة، ويقدّم الشكر لله

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

سبحانه وتعالى على كلِّ نعمةٍ أنعمها الله عليه، حتّى تكون زيادة النعمة عليه جزاءً لشكره وليس إملاءً له لمعصيته سبحانه.

الكيدُ

الوصول إلى المراد قد يكون بطرقٍ ظاهرةٍ معلومةٍ، وقد يكون بطرقٍ تخفى على كثيرٍ، والوصول للمراد من خلال الطرق الخفيّة قد يكون ممدوحاً وقد يكون مذموماً، لأنَّه فيه خداع، والكيد هو نوعٌ من أنواع الحيلة، والحيلة هي وسيلةٌ من وسائل الوصول للمراد بطرقٍ خفيّة، لذا ورد في الكتاب العزيز: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[1]. فالله يكيد للكافرين جزاءً لكيدهم وخداعهم.

والاحتيالُ للوصول إلى المطلوب بصورةٍ عامّةٍ إذا لم يكن فيه تعدّي على الآخرين وسلب حقوقهم لا ضير فيه، أقصد أنَّ الإنسان قد توصّل إلى اساليب معقدّةٍ ومتطوّرةٍ للوصول إلى مقاصده في الاستفادة من جميع الموجودات حوله، وأكثر هذه الطرق هي طرقٌ خفيّةٌ لتوظيف قوانين الطبيعة وموجوداتها من جمادٍ ونباتٍ وحيوانٍ، بل وحتّى من بني نوعه، فالإنسان قد يريد نتائج لا يعرفها غيره من الذين يشتغلون بتحقيقها، كما نرى في هذه الأزمان كثيرٌ من المؤسسات العلميّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغيرها يستفاد منها في غير الأهداف المعلنة من انشائها فهي توظّف أُناسٍ حسب هدفٍ معلنٍ، ولكن يستفاد من جهودهم في أهدافٍ

---

(١) سورة الطارق، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

وأغراضٍ أُخرى، فهذه في الواقع من أوضح نماذج الحيلة، ومع ذلك يتقبّلها كثيرٌ من الناس، ما لم تسلب حقّاً وتؤدّي إلى ظلمٍ.

فحياة الإنسان حافلةٌ بالحيل وكلَّ فردٍ لو راجع ماضيه لوجد أنَّ كثيراً من الأمور المهمّة في حياته قد وصل إليها بطرقٍ خفيّةٍ ومعقّدةٍ، فليس كلّ حيلةٍ مذمومةٍ ولا كلَّ كيدٍ قبيحٍ بنظر العقل، لذا نرى آياتٍ قرآنيّةٍ متعدّدة نسبت الكيد إلى الله سبحانه وتعالى، وقطعاً كيده جلَّ جلاله حَسَنٌ جميلٌ، فهو العليم القدير اللطيف الخبير يمكنه تحقيق ما يريد بقوله كن فيكون، ولا يحتاج إلى طرقٍ خفيّةٍ، ولكن شاءت حكمته أن تكون بعض النتائج لا يُعلم بمقدّماتها كثيرٌ من خلقه خصوصاً إذا كانت تلك النتائج هي مُجَازاتٍ لأفرادٍ على كيدهم وخداعهم فتكون أعمالهم ترد عليهم وينقلب السحر على الساحر، ولا يحيق المكر السيء إلَّا بأهله، ولا يقاس بكيده كيد أحدٍ لأنَّه القادر الذي لا يحدُّ قدرته شيءٌ والعالم الذي لا تخفى عليه خافية، لذا وصف كيده بالمتين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1]. أي صُلْبٌ وقَويٌّ لا ينتقض ولا يخترق ولا تتخلّف نتائجه، هذا بالنسبة إلى كيده سبحانه وتعالى.

وأمَّا بالنسبة إلى كيد الشيطان فإنَّ من المؤكد أنَّ الشيطان لا يترك الإنسان بحاله إلَّا أن يكون مثله هالكاً مطروداً من رحمة الله، وهو لا يترك وسيلةً من الوسائل إلَّا ويستعملها في تحقيق تلك الغاية، فهو في أوّل حيلةٍ له مع الإنسان خدع آدم وحواء عليهما السلام حينما قال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢ ـ ١٨٣.

تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1]. فهذه أوّل حيلةٍ صدرت منه وبسببها هبط آدم إلى الأرض، ومن ثَمَّ توالت حيله على آدم وذريّته، وبسبب تَدَخُّلِه الخفيّ وإلقاء الأفكار والوساوس في نفس الإنسان لا يشعر بتلك الحيل والمكائد التي يقدّمها الشيطان للإنسان من أجل تحقيق أمرٍ من الأُمور المنكرة والمبعدة عن طريق الله سبحانه وتعالى.

وليس الشيطان فقط يتبع هذه الأساليب من الكيد والحيلة للإيقاع بالمؤمنين بل هناك من شياطين الإنس من يقوم بذلك كما يحكي لنا القرآن الكريم حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

ومن موارد اشتراك الإنسان مع الشيطان في الكيد يذكر لنا القرآن الكريم في قصّة نبيِّ الله يوسف حيث يقول: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[3]. فإنَّ يعقوب هنا ينهى يوسف عن أن يقصَّ رؤياه على أخوته خوفاً من كيدهم ومن ثُمَّ يقول له إنَّ الشيطان

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥.

للإنسان عدوٌ مبين، أي أنَّ هذا الكيد هو بسبب عداوة الشيطان للإنسان ويستعمل بعض الأفراد في تحقيق هذا الأمر، فأخوة يوسف مع أنَّهم لم يعلموا بأمر الرؤيا ولا بنبوّته، فقط لأجل قربه من أبيه قاموا بتلك المكيدة، وذيل الآية المباركة ينبئ بأنَّ تلك المكيدة من القاءات الشيطان لأخوته، وليس هذه أوّل وآخر مكيدةٍ يتعرّض لها هذا النبيُّ من أنبياء الله، بل هناك مكيدةٌ أُخرى من قبل النسوة امرأة العزيز وصاحباتها، ومكيدة النساء كانت صعبةً على هذا النبي بحيث وصل به الأمر أن يستنجد بعون الله وإلَّا يسقط في ذلك الفخ، يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]. وأنت ترى أنَّ القرآن يصف كيد النسوة بالعظيم ويصف كيد الشيطان بالضعيف، حيث يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[2]. ويقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[3].

وفي النتيجة إنَّ الشيطان يكيد للإنسان لإيقاعه في شراكه، وإن لم يتمكّن من ذلك استعان بأعوانه من شياطين الإنس من الرجال والنساء لكي يقوموا عنه بالمكائد والحيل للإطاحة بأهل طاعة الله.

لولا العناية الإلهيّة لما نجى من هذا الكيد إلَّا القلائل جداً، فالله سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن أهلِ طاعته، بل من النواميس الإلهيّة الحاكمة في هذا العالم أنَّ

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٢٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦.

المكر السيء يحيق بأهله والكيد يرتدُّ على صاحبه كيف ما كان، لذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[1]. أي يجعله ضعيفاً ولا يتضرر منه المؤمنين كما يقول في آية أُخرى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2]. فالصبر والتقوى خير وسيلةٍ يتصدّى بها لكيد الأعداء، أمَّا كيف ينفع الصبر والتقوى في ذلك فنقول:

أمَّا الصبر فهو في حقيقته مرابطٌ في ساحات القتال على الصعيد الخارجي والداخلي، فإنَّ من لا يتوفّر عنده عنصر الصبر محكومٌ عليه بالهزيمة، فالحيل والكيد والمكر كلُّها تتلاشى أمام الصابر المرابط ولا يتضرر منها وإنَّما يعمل الكيد من أجل الهزيمة فإذا تحقّق الانهزام يكون الكيد حقّق النتائج التي وضع من أجلها، أمَّا إذا كان هناك صبرٌ وتحمل أمام جميع وسائل العدو فهذا يعني أنَّ تلك الوسائل ومنها الكيد محكومٌ عليه بالفشل.

وأمَّا التقوى فهي في الواقع حرزٌ حصينةٌ تحصن صاحبها عن الأخطار، لأنَّها تعني الإستقامة، والإنسان المستقيم دائماً يكون قويَّ الجانب ولا تكون عنده نقطة ضعفٍ يمكن للعدو اختراقها من خلال كيده، بخلاف أصحاب المطامع فإنَّهم غالباً ما يصرعون تحت بريق مطامعهم، ونقاط ضعفهم مكشوفةٌ لأعدائهم ومن السهل جدّاً اختراقها والتغلّب عليهم، فهذان العنصران من أهم العناصر التي يجابه الإنسان المؤمن بهما كيد الأعداء سواءً كانوا من الإنس أو الجن، فالإنسان المؤمن المتوفّر على عنصر الصبر والتقوى يكون مفعماً بالثقة والروح المعنويّة عنده عاليةٌ جدّاً،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٨.

(٢) سورة آل عمران، ١٢٠.

ومنطقه كما يقوله القرآن الكريم: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

ولا يخفى ما للدعاء من أثرٍ في إبطال مفعول كيد الأعداء، فهو تعلُّقٌ وارتباطٌ بالقدرة المطلقة والتجاءٍ إلى القوّة القاهرة المتينة، وهو الكريم الذي لا يخيب قاصديه، ومن نماذج الإلتجاء ما يذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

ووراء كلِّ ذلك إنَّ الله سبحانه وتعالى يجازي أهل الكيد السيء بأن يتولّى مجازاتهم بإرجاع كيدهم عليهم، وهذا من معاني كيد الله سبحانه وتعالى كما يقول: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

(٤) سورة الطارق، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

الاستفزاز

قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾[1].

ذكر الراغب الاصفهاني تحت مادة (فز) أنَّ المراد منه هو الإزعاج، وذكر أيضاً في معاجم اللغة أنَّ الاستفزاز هو الافزاع كما في كتاب العين والمحيط في اللغة، وذكر أيضاً أنَّه الاستنهاض أو الاستخفاف.

والإزعاج من الأساليب المهمّة لإخراج الإنسان عن أخلاقه وسجيّته ووقاره، وكثيراً ما نفعل ذلك في حياتنا حينما نجد أنَّا تضايقنا من شخصٍ فنحاول أن نزعجه لنخرجه عن طوره وانسانيّته، فإذا خرج الإنسان عن طوره ابتعد عن ضوابط العقل وعقاله، وتصرّف بلا انضباطٍ فقطعاً وسوف يقع في كثيرٍ من الأخطاء قد يكون بعضها ممّا يتعسّر تصحيحه أو اصلاحه، وكذا الحال حينما يكون الإنسان فزعاً.

أمَّا كيف يستفز الناس بصوته؟ وما هي وسائله في ذلك؟

ذكر كثيرٌ من المفسرين أنَّ صوت الشيطان هو المزامير والآت اللهو والطرب، أو الغناء، وهذا ينسجم مع تفسير الاستفزاز بمعنى الاستخفاف، فإنَّ الطرب هو خفّةٌ تعتري الإنسان بسبب سماعه للألحان، أو كلَّ صوتٍ يدعو للباطل فهو صوت الشيطان، وهذا قد ينسجم مع معنى الاستنهاض، فكلَّ صوتٍ يستنهض الإنسان ويدعوه للباطل فهو استفزازٌ من الشيطان.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

وكيفما كان فإنَّ الازعاج والاستخفاف والاستنهاض التي يقوم بها الشيطان تدخل ضمن الاستفزاز، ومقصده في ذلك هو أن يخرج الإنسان من اتزانه وانضباطه لكي يسهل عليه ايقاعه في المعاصي، ويكون عمله بعيداً عن حكم العقل والعقلاء.

وأهمُّ ما يمكن أن يجابه به الإنسان هذه الوسيلة هو أن يترك ما يزعجه أو يستخفه أو يستنهضه للباطل، واذا لاحظنا كم من الناس تستمع إلى الألحان والغناء وما يصاحبها من محرّماتٍ نعلم كم يستفز الشيطان من الناس، وكم يقعون صرعى تحت هذه الوسيلة، فلا بدَّ لنا أن لا نصغي إلى كلِّ ما يطرق أسماعنا، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[1]. وهو سبحانه يمتدح عباده ويُبَشّرَهم بقوله: ﴿فَبِشّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2]. فأصحاب العقول الذين هم على بصيرةٍ من أمرهم لا يستخفهم أو يزعجهم سماع الباطل وصوت الشيطان، بل اصغائهم في أغلب الأحيان إنَّما يكون لصوت العقل حتّى إذا كان مخالفاً لملذّاتهم وأهوائهم ورغباتهم.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

النسيان

يقول الراغب الاصفهاني في مفردات القرآن الكريم ص٨٠٣ النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع؛ إمَّا لضعف قلبه؛ وإمَّا عن غفلة؛ وإمَّا عن قصدٍ حتّى ينحذف عن القلب ذكره، يقال: نسيته نسياناً.

نِعَمُ الله على الإنسان لا تعدُّ ولا تُحصى، منها النسيان لا يتصوّر كيف يمكننا أن نعيش من دون هذه النعمة؟ حيث إنَّه لولاه لما تَسَلَّى عن مصيبةٍ، ولا انقضت عنه حسرةٌ، ولا مات له حقدٌ، ولا تهنأ بلذَّةٍ، ولا أمَّلَ من جائرٍ غفلةً، ولا من حاسدٍ فترةً، كما يقال.

والنسيان موجودٌ في الطبيعة البشريّة أمرٌ ملازمٌ للخلقة وإن كان له استثناءاتٍ، وهو مقابلٌ للذكر، وبما أنَّ الإنسان فاعلٌ علميٌّ بمعنى أنَّ لعلمه دخل في فعله، فما كان حاضرٌ عنده من علمٍ يُؤَثّر في سلوكه وما كان غائباً عنه لا يُؤَثّر فيه، من هنا بعث الله انبيائه ورسله مذكّرين حيث قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[1]. فإنَّ نسيان الغاية يوجب التَيْهَ والضلال في الطريق، والانشغال عنها بأُمور غيرها، فمن قصد مكاناً يريد الذهاب إليه فما دام ذاكراً له يسلك الطريق الموصل إليه أمَّا إذا نسي غايته فإنَّه لا يصل إليها، لذا ندرك أهميّة الحثّ الكثير والأكيد من الله سبحانه وتعالى على دوام ذكره وكثرته سرّاً وعلانيّةً صباحاً ومساءً، قال سبحانه:

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ٢١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[١]. وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[٢]. وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[٣]. وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٤]. فالذكر الكثير والشديد يجعل الغاية حاضرةً شاخصةً غير مغفولٍ عنها لذا أصحاب العقول ينظرون إلى ما في السموات والأرض من آياتٍ تذكّرهم أنَّ هذا الخلق ليس مخلوقٌ عبثاً بل هناك غايةٌ سائرٌ إليها فيذكرون الله في كلّ حالٍ من أحوالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٥].

ونسيان الإنسان لربِّه هو نسيانٌ لنفسه وتضييعٌ لها، لأنَّ كرامة الإنسان بكونه خليفةً لله سبحانه، ونسيان الله هو نسيانٌ لخلافته وللدور الموكل إليه وهو بالتالي نسيانٌ لكرامته، فإنَّ الإنسان إنَّما أكرم لكونه خليفةً لذا سجدت له الملائكة ورفض إبليس هذا التكريم حيث قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١.

يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١]. لذا كان نسيان الله هو نسيانٌ لنفسه كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢]. ومن ينسى الله يجازيه بالنسيان، كما قال سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣]. وقال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٤]. وقال أيضاً: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

والمراد من نسيان الله لهم تركهم عمداً من فيض رحمته، وتركهم في العذاب، فإنَّا قلنا أنَّ معنى النسيان هو الترك إمَّا قصداً أو بدون قصد، فالكفار والمنافقين لمَّا تركوا الايمان بالله عمداً بعد قيام الآيات والبراهين على أيدي أنبيائه ورسله عليهم السلام جازاهم الله بتركه إيّاهم في ضلالهم وعذابهم.

فالشيطان إنَّما يتدخّل في استعمال النسيان بتوجيهه إلى بعض القضايا دون البعض الآخر، فكل قضية فيها ذكر الله أو تؤدّي إلى ذكره سبحانه وتعالى وقربه يعمل الشيطان على صرفها من ذاكرة الإنسان، ويثير القضايا التي تبعده وتشغله عن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

(٥) سورة السجدة، الآية: ١٤.

الله سبحانه، قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

أمَّا كيف يقوم الشيطان بفعل النسيان؟ نقول أنَّه في العادة لا يوجد في شعور الإنسان الحاضر إلَّا قضيّةً واحدةً ولا تحلُّ محلَّ تلك القضيّة قضيّةً أُخرى إلَّا أن تزول الأولى عن الشعور، والقضيّة التي في شعور الإنسان إمَّا تأتيه من الخارج كما إذا رأى زيداً قائماً أمامه، وإمَّا أن يستحضرها من خزين معلوماته التي في نفسه كأن يتذكّر قيام زيدٍ في الأمس لغايةٍ من الغايات، فيمكن للشيطان أن يثير قضيّةً من الخارج أو من الداخل كي يشغل بها الشعور، ولا تحلُّ محلّها قضيّةٌ أُخرى ينتفع بها الإنسان، وبهذا يجعله ناسياً لذكر الله سبحانه أو لأمرٍ يوصله إلى الله، وخير مثالٍ في ذلك ما نراه في أنفسنا حال الصلاة فإنَّ كثيراً من القضايا تهجم عليك من أجل أن تشغلك عن ذكر الله فلا ترى نفسك إلَّا وقد انتهيت من الصلاة من دون أن تعي ما فعلت فيها، هكذا يقوم الشيطان بعمليّة النسيان يلقي أُموراً في ذهنك ليشغلك بها عن أُمورٍ أُخرى.

ومن الأمثلة التي يذكرها القرآن إنَّه حينما سار موسى وفتاه للقاء العبد الصالح ليتعلّم موسى على يديه، كان هناك علامةٌ عند موسى إذا حصلت سيلتقي في مكانها مع ذلك العبد الصالح، وهذه العلامة هي ذهاب الحوت الذي كان يحمله فتاه في البحر، وقد حصل هذا الفعل ولكن نسي أن يخبر موسى عليه السلام بذلك، فلمّا طلب موسى الغداء ليأكلوا الحوت ـ أي السمكة ـ وكانت مشويّةً كما قيل، تذكّر الفتى أنَّ الحوت قفز إلى البحر وذهب، وعلّل فتى موسى نسيانه أنَّه حصل بسبب الشيطان،

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

فالشيطان تدخّل في هذه القضية لمنعهم من اللقاء بذلك العبد الصالح لكي يتعلّم منه موسى، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1].

والمثال الآخر الذي يقصّه القرآن أحد أصحاب نبيِّ الله يوسف عليه السلام حينما نجى من السجن وطلب منه يوسف أن يذكره عند الملك فينظر في مظلمته عسى أن يطلقه من السجن، فتدخّل الشيطان فأنسى ذلك الناجي من أن يذكر يوسف عند الملك فلبث يوسف عليه السلام في السجن عدَّة سنين، كما يقصُّ ذلك القرآن حيث يقول: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[2]. فالشيطان تدخّل في ذلك من أجل أن يمنع خروج يوسف من السجن، فإنَّ في خروجه صلاحٌ لكثيرٍ من الناس.

فمهمَّة الشيطان في إحداث النسيان هي من أجل أن يقطع الطريق على الإنسان، إمَّا بجعله ينسى ذكر الله فيوقعه بالمعصية، وإمَّا ينسيه التوبة والرجوع إلى الله، فإنَّ من رحمة الله بالإنسان أنَّه إذا اغراه الشيطان بالمعصية وأوقعه فيها فَتَحَ له

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٦٠ ـ ٦٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

باب التوبة لتدارك خطئه والقيام من عثرته، بأن يندم على ما بدر منه ويتوب إلى الله، وفي هذا تخييبٌ لفعل الشيطان، لأنَّ الشيطان يبذل جهداً كبيراً لكي يغري الإنسان بارتكاب المعصية وحينما يتوب الإنسان منها يذهب جهده هباءً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1] . فهو يحاول أن يسدَّ عليه هذا الباب وهو باب التوبة بأن ينسيه إيّاها، حتّى لا يخيب سعيه وجهده.

وعلاج النسيان أن يكون الإنسان على ذكرٍ دائمٍ من ربِّه ولا يغفل عنه لأنَّ الغفلة هي فتح الطريق للشيطان، فإذا ما نسي الإنسان وابتعد عن الله ثم تذكّر عليه أن يعود عاجلاً، يقول سبحانه: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2] .

السِحْرُ

قصّة السحر ضاربةٌ في القدم ومنتشرةٌ في التاريخ واصقاع الأرض من الهند وبلاد فارس واليونان القديمة وبابل ومصر إلى حضارة المايا في القارّة الامريكيّة، ويتصّور البعض أنَّ السحر انتهى زمنه في عصر العلم والاكتشافات التجريبيّة، وأنَّه ليس له حظٌ من الحقيقة، ولكنَّ المتصفّح للتاريخ وأحوال الناس في شتّى أصنافهم وتجمّعاتهم يجد السحر لا يفارق المجتمعات الإنسانيّة حتّى في أرقى الحضارات الإنسانيّة وأوج التمتّع بثمار العلم، وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد بحثٍ في علوم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

الاجتماع وفروعه لاكتشاف الأسباب والعلل التي تجعل كثيراً من بني البشر يميلون إلى هذا الجانب الغامض والخفيِّ للتأثير على بعض الأوضاع الماديّة أو النفسيّة في حياة الإنسان.

والذي يَهُمُّنا بحثه هو ما يرتبط فيما جاء في القرآن الكريم عن السحر وارتباطه بالشيطان باعتباره وسيلةً من وسائل الاضلال والوقوع في حبائله وهو ما يخصُّ بحثنا، وقبل الدخول في البحث القرآني لابدَّ أن نوضّح ما هو المراد من السحر؟ ولا نريد أن نُعرِّفه تعريفاً لغويّاً أو اصطلاحيّاً فإنَّ ذلك يزيده غموضاً، وإنَّما نوضّحه من خلال آثاره ونتائجه، فقديماً كان يطلق السحر على كلِّ أمرٍ يعطي أثراً من دون أن تكون أسبابه واضحةً للحواس، ولذلك حتّى خفّت اليد كانت تعتبر من السحر أو استعمال مركبات كيميائيّة تؤثّر في شيءٍ آخر تسمّى سحراً، والمصاديق البارزة للسحر هو أن يكون أمراً خارقاً للعادة يُؤثِّر في الغير من دون الإستناد إلى أسبابٍ طبيعيّة.

السحر والمعجزة

السحر من بعض جهاته يشبه المعجزة، لأنَّه أمرٌ خارقٌ للعادة، والمعجزة كذلك فإنَّها أمرٌ خارقٌ للعادة مقرونٌ بالتحدّي مع عدم المعارضة، هكذا قيل في تعريفها، ومن خلال التعريف تمتاز المعجزة عن السحر فإنَّ الساحر لا يتحدّى السحرة لأنَّه أمرٌ قابلٌ للتعليم والتعلّم كما تَعَلَّمَ السحر يمكن لغيره أن يعرف ما يجيده غيره، وإذا تحدّى الغير فيمكن للغير معارضته وإفحامه، بخلاف المعجزة فإنَّ صاحبها يتحدّى الآخرين لأنَّه يدّعي أنَّه مُتصِلٌ بالقدرة المطلقة التي تقدر على ما لا

يقدر عليه غيره ولا يمكن لأحدٍ معارضة صاحب المعجزة، فالساحر يعرف عدّة أُمورٍ فقط تعلّمها في السحر، أمَّا صاحب الاعجاز يكون خرقه للعادة تحت الطلب، بمعنى أنَّ الساحر لا يستطيع أن يفعل كلَّ أمرٍ يطلب منه وإنَّما يفعل فقط ما يقدر عليه وما تعلّمه، وأمَّا المرتبط بالله من الأنبياء والأولياء فبالإمكان الطلب منهم أيَّ شيءٍ ويتحقّق ذلك، فقد طلب من نبيِّ الله صالح أن يخرج لهم ناقةً من الصخرة وفعل لهم ذلك وطلب من عيسى عليه السلام أن ينزل مائدةً من السماء وفعل ذلك، وطلب من موسى عليه السلام كثيراً من الأُمور وفعل ذلك، والساحر لا يستطيع أن يفعل كلَّ ما طُلِبَ منه، فهذا هو الفارق المهم بين السحر والاعجاز، مع أن كلاهما أمرٌ خارقٌ للعادةٍ.

قدرة خرق العادة

هناك أسبابٌ متعدّدة تعطي الإنسان القدرة على خرق العادة أو أن يأتي بأُمورٍ لا يستطيع أكثر الناس الإتيان بها، منها تمرُّنه على أُمورٍ لا يستطيع من لا يتمرّن عليها الإتيان بها، من قبيل قطع الطعام والشراب أيّاماً أو إتيانه بحركاتٍ وأفعالٍ عجيبةٍ، ومنها اكتشافه لأسبابٍ خفيّةٍ تعطي آثاراً ظاهرةً للعيان لا يعرف تلك الأسباب غيره، ومنها الاعتماد على قدرات النفس وطاقاتها، ويُعْرَفُ ذلك في أزماننا باسم علم البراسيكولجي كقراءة الأفكار وإرسالها وتحريك الأشياء وغيرها من الأُمور التي تعتمد على طاقة النفس وقدراتها، ومنها الاعتماد على موجوداتٍ خفيّةٍ غير ظاهرةٍ للعيان من قبيل تسخير الجنِّ والشياطين والأرواح وما شاكل ذلك، ومنها قرب

الشخص من الله ودخوله في زمرة الأولياء فإنَّ ذلك يعطيه القدرة على خرق العادة أيضاً، هذه جملةٌ من الأسباب تجعل الإنسان قادراً على خرق العادة.

ولابدَّ من الالتفات إلى أمرٍ مهمٍّ جدّاً، ألا وهو إنَّا حينما نقول خرق العادة لا نعني بذلك نقض قانون العليّة والمعلوليّة الحاكم على نظام الوجود فهذا أمرٌ مخالفٌ لبديهة العقل وأحكامه الواضحة، فخرق العادة ليس هو احداث شيءٍ بلا سببٍ أو علّةٍ، وإنَّما هو احداثه بسببٍ غير معتادٍ وغير ظاهرٍ، إذن هو له سببٌ ولكن سببٌ غير واضحٍ للحواس، فليس جميع الأسباب واضحةً، بعضها كذلك والبعض الآخر يكتنفه الغموض حتّى لو كان ماديّاً فضلاً عن أن يكون ما ورائيّاً، وهذا أمرٌ مهمٌّ ينبغي التنبّه له.

تاريخ السحر

يذكر القرآن أنَّ قوم ثمود اتهموا نبيَّهم صالحاً أنَّه من المُسْحَرين، كما تذكر سورة الشعراء من آية ١٤١ إلى آية ١٥٣، وهذا النبيُّ كان من حيث التسلسل الزمني قبل نبيِّ الله ابراهيم، ولو لم يكن السحر موجوداً عندهم لما اتهموه به، فزمانه عليه السلام هو أوّل زمانٍ يذكر فيه السحر، ثم يذكر القرآن على نحو الإشارة في زمن ابراهيم لعلم النجوم، قال سبحانه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1]. ثم يذكر عصر ازدهار السحر في مصر وزمن الفراعنة حيث كانت هي الحرفة الرائجة، وكانت معجزة موسى عليه السلام هي العصى التي أبطلت سحر السحرة وآمنوا بنبوّة موسى عليه السلام لمّا

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

رأوا الاعجاز الإلهي، وبقي السحر رائجاً بعد موسى عليه السلام إلى ما بعد نبوّة سليمان عليه السلام حيث اتهم سليمان أنَّه كان يملك ذلك السلطان العظيم على الجنِّ والإنس بالسحر، يقول الحق سبحانه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فهذه الآية تذكر أنَّ الشياطين هم الذين يُعَلِّمونَ الناس السحر، لأجل إبعادهم عن طاعة الله وتوحيده، وتعليمهم يكون عن طريق ارشادهم إلى أسبابٍ خفيّةٍ لا يعرفونها لحصول نتائج من غير أسبابها الطبيعيّة، وهذا الأمر يختلف عن القدرة التي كان يمتلكها نبي الله سليمان، فهو باعتباره نبيٌّ يكون حائزاً على مقام الولاية والقرب الإلهي لذا حينما طلب من الله ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده أعطاه الله ذلك كما ورد في القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[2]. فقدرة سليمان لم تكن بالإعتماد على غير

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة ص، الآيات: ٣٤ ـ ٤٠.

الله سبحانه وتعالى حتّى يكون سليمان كافراً بالله، لذا ورد في الآية السابقة وما كفر سليمان ولكنَّ الشياطين كفروا، وإنَّما كانت قدرته تستند إلى صاحب القدرة المطلقة وهو الله سبحانه وتعالى.

السحر وسيلة اغراءٍ

قديماً كانت ترمى معاجز الأنبياء بأنَّها سحرٌ، وأنَّ الأنبياء هم سحرةٌ، من قبل مخالفيهم وبذلك يلبسون على الناس الحقَّ بالباطل وكثيرٌ من العقول الضعيفة تنطلي عليها تلك الدعوات، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1]. ولكن من يتأمّل ويتدبّر دعواتهم يجد أنَّها بعيدةً كلَّ البعد عن السحر والساحرين فهم ليسوا بطالبين مالٍ أو دنيا أو شهرةٍ وإنَّما هم أدلّاءٌ للناس إلى الله، لذا نجد أنَّ أهلَّ الاختصاص بالسحر حينما تبيّن لهم الحقّ كيف خضعوا له وتحمّلوا نتائج ذلك الخضوع، لنتأمّل هذه الآيات المباركة من سورة الاعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.

فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[1].

فالشيطان أوّلاً استخدم السحر في ابطال دعوى النبوّة من قبل الأنبياء وأوحى للناس بأنَّ هؤلاء سحرةٌ لا يستحقّون الإتّباع وليسوا بأنبياء لله، وبذلك كان السحر من أهمِّ وسائل الشيطان لإبعاد الإنسان عن طريق النجاة واتّباع أنبياء الله ورسله.

وثانياً إنَّ الشيطان يستخدم السحر في اضلالهم بارتكاب شتّى المعاصي كما في هذه الأزمان، فإنَّ من تطلّع لأحوال المشتغلين بالسحر والشعوذة ومن يدّعون أنَّهم يعالجون الناس ويعملون المحبة والبغضة والجمع والتفريق وغيرها من الأُمور، يجد عندهم الدواهي العظمى في استغلال الناس وابتزازهم أموالهم وأعراضهم وسمعتهم إلى غير ذلك، حتّى يصبح من يقصدهم اللعوبة بيدهم، والأدهى من ذلك أنَّهم يأخذون من الناس ما يريدون ولكن أعمالهم لا تنفع الناس شيئاً أصلاً، وإنَّما هي مَحضُ دَجَلٍ وشعوذةٍ، والمستقرءُ للمجتمعات يجد أنَّ كثيراً من أفراده يلتجئون

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٠٤ ـ ١٢٦.

لهـؤلاء الـدجالين، حتّـى المثقفـين وأصـحاب الشـهادات والسياسـيين والإداريـين وأصحاب المناصب، وأمَّا النساء فحدّث ولا حرج.

أنقل مقالةً علـى طولهـا جـاءت فـي صـحيفة الـرأي الالكترونيـة بتـاريخ ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨ العدد ١٠٦٧١ تحت عنوان الدجل في حياة المشاهير لدعاء فتوح جاء فيها:

دائماً نخشى الغيب... فهو البوّابة السحريّة لمعرفة أقدارنا نحن البشر التائهين، نعرف أنّنا سنرحل، ولكن لا نعرف كيف؟ ومتى؟، ولا نملك من حطام دنيانا بخلاف اللحظة الحاليّة شيئاً.

لذلك يلجأ بعضنا لمعرفة أقدارهم وطوالعهم عن طريق المتنبئين والفلكيين، أو عن طريق الدجالين والمشعوذين.

وثبت في أذهاننا أنَّ هؤلاء المهتمين بهذا «العالم الخرافـي»... هـم أشـخاصٌ يفتقـدون للثقافـة الكافيـة والمعرفـة... أوهـم ممَّـن يعيشـون فـي القـرى والمنـاطق العشوائيّة... حيـث ارتـبط الـدجل والشـعوذة بضـعاف النفـوس الـذين لا يسـتطيعون مواجهة مصائرهم، وأقدارهم.

لذلك كان من أكثر الأمور غرابةً... هو اكتشاف مدى تعلّق أصحاب السـلطة من السياسيين المرموقين على مرِّ العصور، وكذلك مشاهير الفنِّ والرياضـة والأدب، وغيرها، بتلك العلوم.

حتى إنَّ الكثير من الأُمراء والملوك... كان لـديهم «مُـنَجِّم» أو أكثـر مـرتبطٌ بقصورهم مثل لـورنزو مُـنَجِّم دوق فلورنسـة، وتيموبراهـة مُـنَجِّم إمبراطـور النمسـا، وإليزابيث تيسية المستشارة الروحيّة للرئيس الفرنسي الأسبق ميتران.

إضافةً إلى أنَّ هناك الكثير من المُنَجِّمين «المشاهير طبعاً» الذين ارتبطت أسماؤهم بالملوك.

كما اهتمَّ ملوك وأمراء العرب بتلك العلوم، ومن أشهر هؤلاء الأُمراء أبو جعفر المنصور العباسي... حيث كان لا يصدر أمراً إلَّا باستشارة نوبخت والفزاري.

الدجل... في حياة المشاهير... في جميع المجالات... ومن خلال التقليب في كثيرٍ من الأوراق والحكايات والأساطير القديمة والحديثة... تعدّدت أسبابه... وتنوعت أدواته.

فهناك من أراد أن يحصل على كسبٍ اقتصاديٍّ... أو منفعةٍ سياسيّةٍ... أو المبارزة على منصبٍ وجاهٍ... حتّى إنَّ الأمر ولايزال مستخدماً في أجهزةٍ استخباراتيّة، وفي انتخاباتٍ رئاسيّة في دولٍ كبرى... وفي حكايات وارتباطات المشاهير بالدجل... مفاجآتٌ كثيرةٌ... في السطور التاليّة... كثيرٌ من بينها.

لم يكن السياسيّون الفرنسيّون - كما ذكرنا سابقاً - وحدهم المهووسون بالتنجيم وقراءة الطالع والاعتقاد في القدرات الخارقة للعرّافين والمُنَجِّمين في معرفة ورسم المستقبل... فالقائمة كبيرةٌ تضمُّ العديد من السياسيين ورؤساء الدول الكبرى.

والغريب أنَّ هؤلاء السياسيين والرؤساء... لهم بصماتٌ محوريّة في التاريخ الإنساني، إلَّا أنَّ غالبيّة قراراتهم مجرّد ضربٍ من ضروب الخرافة والدجل... ويبدو أنَّ الساسة الحقيقيّين لم يكونوا سوى هؤلاء المتنبئين، وتلك القائمة تدعو للدهشة لأنَّها تضمُّ توليفةً تحمل طغاةً مثل «هتلر»، وأبطال تحرير مثل «تشرشل»، وشيوعيين مثل «ستالين وبرجنيف» واصلاحيين مثل: «يلتسين»، و«ديموقراطيين مثل: «مارغريت تاتشر»... بل وبراغماتيين في أميركا بدءاً من ابراهام لنكولن «أحد آباء الاستقلال» ونهاية «برونالد ريغان»، ولنبدأ بأميركا معقل البراغماتية، وعمادها كما هو معروف.

أميركا بلد المتناقضات

دائما تكون الولايات المتحدة الأميركية مثاراً للجدل والمتناقضات... فهي بلد العلم والعلماء من ناحية، ومن ناحيةٍ أُخرى من أكثر المجتمعات الغربيّة اهتماماً بالتنجيم وقراءة الطالع واعتباره حقلاً من حقول العلوم والمعرفة الإنسانيّة.

وفي هذا تقريرٌ ناقشته «الرابطة الأميركية لتشجيع العلم» في مطلع العام الحالي... عن تزايد الاهتمام بالتنجيم في أميركا.

حيثُ يلعب الإعلامُ الأميركي دوراً كبيراً في التَرويج للتَنجيم والخُرافَة عِبر صُحُفٍ ومحطّاتٍ تَلَفزيونيّة وكُتُبٍ ومَوَاقع الكترونيّة، كما يوجدُ هناك نحو «١٠» آلاف مَنجَم مُحترف يعملون بصِفةٍ دائمةٍ، ونحو «٢٠٠» ألف يَعَملون بعضَ الوَقتِ.

وهنا نتوقَّف مع ثلاثَة رُؤساء أميركيين هم «ابراهام لنكولن» (١٨٠٩ – ١٨٦٥)، و«فرانكلين روزفلت « (١٨٨٢ – ١٩٤٥)، و«رونالد ريغان» (١٩١١ – ٢٠٠٥)، فالأوَّل– لنكولن، عاشَ أيّاماً عصيبَةً بَعد حُلُمٍ جاءَه مباشَرَةً عَقِبَ إنتَخابِه عام ١٨٦٠... حيث رأى نَفسَه فيه بشخصيّتين في داخل مِرآة، فتَوجَّس من الحُلُم حتَّى أتَى اليومَ الذي قَالَ فيه لِزوجتِه وأعضاءِ حكومَتِه في يومٍ مِن أيّامِ أبريل العام ١٨٦٥ أنَّ في ذاكرتِه حُلُماً حَول اغتيالِه، فَقَد اغتاله «جون ويكس بوت» بعد ٣ أيّام فَقط من رِوايته لِتلكَ الواقِعة.

أمَّا الرئيس «فرانكلين روزفلت» فكانَ لا يجلس البتّة إلى مائِدةٍ تضمُّ ١٣ شَخصاً ولا يُسافر في أيَّ رِحلة حتّى وإن كانَت رئاسيّةً في يوم ١٣ من كلِّ شهرٍ مَهما كانت الظُروف.

«ريغان» والنبوءة

أمَّا قصة الرئيسُ الراحِل «ريغان»، فتَتَعدَّى ذلكَ الى اكتشافٍ آخَر يقولُ: إنَّ غَالِبيّةً من الشَعب الأميركي ظلَّت تَربُط بين أحداثٍ مُتفرِّقَةٍ لتنسِجَ منها روايةً أسطوريّةً، أو قُل «غيبيّةً» تؤكِدُ أنَّ أيَّ رئيسٍ أميركي يَأتي فوزَه بالرئاسَة في عامٍ يَنتهي في أرقامِه الأربَعَة بالصِفر يميناً سوفَ يموتُ، أو يُقتل أثناء الحُكم.

وقد أنشَأ الأميركيّونَ تِلكَ العقيدةَ الغيبيّة مِن تاريخهم بعد أن لاحَظَوا أنَّهم وعلى مَدى ١٥٠ عاماً، لم يَنتخِبوا رئيساً بتلك المواصَفات إلَّا ومَات... أو قُتِل خِلال رئاسَتِه.

وهُم يقرَأون هُنا من رُؤَسائِهم الذينَ انطبَق عليهم ذلك الحُكم «هاريسون» – انتخب في ١٨٤٠– و«لنكولن ١٨٦٠»، و«غارفيلد ١٨٨٠» و«ماكينلي ١٩٠٠»، و«هاردينج ١٩٢٠»، و«روزفلت ١٩٤٠»، و«كنيدي ١٩٦٠».

ليجيء «ريغان» الذي انتخب في ١٩٨٠... ليُكذِّب لهم الحُكم، بل ويُكمِّل رئاسَتين الى ١٩٨٨، بل ويُعمِّرُ ليطفئ شمعة ميلاده الـ٩٣.

ولكن ومنَ العَجيب أنَّ «ريغان» نَفسه وإن كذَّبَ النُبوءَةَ من جهتِه، إلّا أنَه كان أكثر الرؤساء استِغراقاً في الغيبياتِ والايمانِ بالخُرَافاتِ من جهةٍ أُخرى، فقد كان أكثَرُ الرؤساءُ تَمَسُّكاً بطقوسٍ غَريبةٍ بَينَّها نَثْرُه لَمَّا يَقتَرب من ملعَقَةٍ مِن المِلح باستمرار على كتفه اليسرى، وحَملِه قِطَعة عُملةٍ مَعدنيّةٍ ظَنَّ يَقرُنَها بالفألِ الحَسن.

فيما ظَنَّ هو وزوجتُه « نانسي ريغان» يَستَشيران العَرَّافين حَولَ برامِج عَمله الرئاسيّة خاصَّةً علاقتَهُما بالمُنجِّمةِ «جوان كويجلي» التي كانا يستعينانِ بها في تحديدِ جَدوَل الأعمالِ واتخاذِ بَعض القَرارات.

الرئيس الأميركي المقبل

أمّا أكثرُ الأُمور غرابةً فهي تحدثُ الآنَ معَ اقترابِ انتخاباتِ الرئاسَةِ الأميركيّةِ في نوفمبر المُقبل، وتَصارع كُلٌ من «جون ماكين»، و«باراك أوباما» على كرسي الحكم بَعد أن أخرَجَ الأخيرُ منافستِه الديموقراطية القويّةِ «هيلاري كلينتون» من السباق... حيث حطّ أكثرُ من ١٥٠ مُنَجِّماً من ٤٥ دولةٍ رحالَهُم في شَهرِ يونيو الماضي في مدينةِ «دنفر» بولايةِ كولورادو الأميركيّة – التي ستستضيفُ المؤتمرَ الوطني للحزبِ الديموقراطي الذي سيختارُ رسميّاً مرشَحهُ في نهايةِ أغسطس المقبل – لَعقدِ مؤتمرِهِم السنويُ «علم التنجيم المتحد» محاولينَ إعلانَ اسمِ الرئيس الأميركي المُقبل.

فقد أخَذَ هؤلاءِ المُنَجِّمونَ على عاتِقِهم تحديدَ اسمِ الرئيس الأميركي... حيثُ عَكَفوا على تَحليل مُخطَّطات الأبراج وتاريخ ولادةِ المرشَّحين، وأعلَنت المنجِّمة «جوني باتري» عن تاريخ وساعة مولدِ «أوباما»، الذي... بلغها عبر أحد الزَّبائن الذين على صلةٍ بحملتِه، وهو الرابعُ من أغسطس العام ١٩٦١ قُرابة الساعة ١٩و١١ مساء بالتوقيت المحلّي لمكان مولده.

فيما كَشفت والدةِ السيناتور «جون ماكين» – وفي اعلانٍ خلالَ الحملة – أنَّ نَجلها وُلِدَ في ٢٩ أغسطس ١٩٣٩ الساعة الحادية عشرة ظهراً، وتُعتبر الدّقة في تحديدِ وقت ولادة الأشخاص مُهمَّةً جداً للمنجِّمين... ممَّن يلجَأون الى التقويمِ القَمري أو الشَّمسي أو الكواكب لتوقّع المستقبل.

أمّا اللافِت للإنتباه في هذه التوقُّعات الغيبيّة فهو تَضارُب الأقوال حول ساعات مولد كلٍّ من «ماكين»، و«أوباما»... ما سبَّب فوضىً عارمةً من وجهة نظر هؤلاءِ المنجمِّين كما أوضَحت «أكرمان» – احدى المنجّمات – التي توقَّعت أنَّ حظَّ

ماكين يبدو أقوى من حظّ «اوباما» إلّا أنَّ تغيّرَ ساعةِ مولدِ «ماكين» قد يقفُ حائلاً أمام طموحِه بمنصبِ الرِّئاسةِ.

غيرَ أنَّها رفَضت الكَشف عن الإسم الّذي تتوقَّعه للفوزِ بالمنصب، قائلةً أنَّ السيناتور «جو بيدن» الديموقراطي من «ديلاوير»، وحاكم «ماساشوستس «السابق» ميت رومني مرشحان قويان للحِزبين لمنصبِ نائبِ الرّئيس المقبل، إستناداً الى الحِسابات الفلكيَّة، طبعاً.

«أوباما»... الرئيس

وتوقع ٧ منجِّمين شارَكوا في المؤتَمر أنَّه سيتمُّ انتخاب «أوباما» رئيساً للولاياتِ المتحدةِ الأميركيّة... حيثُ قالوا أنّ اتّحاد «زحل والمشتري» (ساتورن وجوبيتر) الذي ينبّئ عن تَغيير... مؤشّر على أن يحقّق أوباما المولود في بُرج الأسَد فَوزاً في نوفمبر المُقبل، وقالت «ساندرا لي سيريو» المشاركة في المؤتمر: «أنَّ رسم أوباما البياني والرَسم البياني للولايات المتحدة مُتشابهانِ جدًّا». غير أنَّ منجِّمةً أُخرى مشاركةً في المؤتمر قالت: «إنَّ موقع القمر نبتون في يناير المُقبل، قد يَعني أنَّ أوباما سيواجِه مشكلةً في تولّي منصِبه حتَّى لو انتُخب رئيساً للولايات المتَّحدة».

الاستخبارات البريطانيّة

وبعيداً عن الانتخابات الأميركية... وخاصَّةً عندما يصبحُ التنجيمُ والإلهامُ مصدراً لرسم السياسات فلا قيمة في هذه الحالةِ للعلم ولا لحقائق الواقِع، حيثُ كَشفت أخيراً وثائقُ تاريخيّةٍ بريطانيّةٍ أنَّ الاستخبارات البريطانيّة استعانَت بمنجِّمٍ للتنبُّؤ بأفكارِ القائد النازي «هتلر» خلالَ الحربِ العالميّةِ الثانيّة.

وتلك الوثائقُ أودعت في الإرشيف الوطنيّ البريطانيّ لإطّلاع العامّة، وكَشفت هذه الوثائِق عن تعاونٍ بين مسؤولي «***MI5***»، وهو جهازُ الاستخبارات البريطاني – والمنجِّم «لويس دي وول».

هذا الأخير الّذي حاولَ إحراجَ الضبَّاط الكبار في الجيش والاستخبارات علناً، وفقاً لوكالة «أسوشييتد برس». ومن بين الوثائِق رسالةً وقَّعها «ديك وايت» الذي تسلَّم منصبَ مدير الاستخبارات في الخمسينات من القرنِ الماضي، جاءَ فيها «لقد كَرهتُ لويس دي وول طوالَ عُمري، فهو «دجّالٌ ومُدّع»

لكنَّ كُرهَ وايت... لم يَمنع «دي وول» من الحصُول على رُتبة نقيبٍ موقَّتاً في الجيش البريطاني، ثُمَّ يرسلُهُ رئيسُ وزراء بريطانيا آنذاك «ونستون تشرشل»، إلى الولايات المتَّحدة في محاولةٍ لإقناع الأميركيين بأنَّ الألمانَ سيُهزَمُون في حَالِ دخولِهم الحرب.

وأوضَحت الوثائقُ «عندما لم تعد خدمات دي وول مرغوبةً، احتار ضُبَّاط الاستخباراتِ في طريقةِ الخلاص من الرَّجُل الذي كان يُسمِّي نفسَه (المُنَجِّم الحكومي الأوّل)».

المنجم الألماني «دي وول»

والمنجم «دي وول» هو ألمانيُّ الأصل... وُلِد في برلين عام ١٩٠٣، لكنَّه هرَب من البلاد مُهاجراً إلى بريطانيا عام ١٩٣٥ لِيُنقذَ نفسهُ من الإعدام، ذلك أنَّ أمَّهُ يهوديّة، بينما هرَبت زوجَته «ألكساندريا» إلى «سانتياغو» في «شيلي»، حيثُ ادّعَت أنَّها أميرةً رومانيّةً، وأطلقَ الناسُ هناكَ عليها إسم «لا بارونيسسا» وهي كلمةٌ تعني البارونة أو الأميرة، لكنَّ زَوجها «دي وول» عندما وصَل لندن ادَّعى أنَّه من النُبلاء

الهنغاريين، ثمَّ قالَ عن نَفسِه أنّه ابنُ أخٍ مسؤولٍ نمسوي، ثمَّ حفيدُ مصرفيٍّ بريطاني، كما ادَّعى أيضا أنَّه قريبُ اللّورد «مايور» في لندن.

وبالرُغم من احتيالِه الواضح، إلّا أنَّ الحظَّ ابتَسم لدي وول عندَما سألتهُ دوقةٌ اسبانيّةٌ في إحدَى الحَفَلات في السفارةِ الاسبانيّةِ في لندن، أن يُخبِر الحاضرينَ عن توقّعاته لبرج الزعيم النازي هتلر، وكانَ من بين الحضورِ وزيرُ الخارجيّةِ البريطاني آنذاك اللورد «هاليفاكس».

«دي وول» والمخابرات البريطانيّة

وعلى أثَر تِلكَ الحفلةِ، طلب «شارلز هامبرو» رئيسُ العمليّاتِ البريطانيّةِ الخاصّة، تعيينُ «دي وول» كَعميلٍ للمُنظَّمة في أوروبا، حيثُ استأجَرت الحكومةُ شُقّةً فندقيّةً للمُنجِّم في منطقة «بارك لين» الفَخمة، ومن هناك كان «دي وول» يبعثُ للحكومة بتوقُّعاته الفلكيَّة للحُلفاء والنازيين على ورَقٍ كُتب في أعلاه «مكتبُ البُحوثِ النَفسيَّة»

لكن توقُّعات دي وول كانت غالباً مبهمةً وغيرُ واضحةٍ، إذ قال في أحَد توقُّعاته في شهر ديسمبر من عام ١٩٤٢: «إنَّ النُجوم تؤكّد أنَّ الألمانَ – وعلى رأسِهم هتلر – إذا اتَّخَذوا قراراتٍ مُهمَّةٍ في الأيَّام الثمانية الأُولى من شَهر يوليو فإنَّ ذلك سيؤدِّي الى كارثةٍ حتميَّة»

التخلص من «دي وول»

واشتَهر «دي وول» بتَفاخُره... حيثُ كان عملاء الاستخباراتِ يَتذمَّرون من طريقتِه في التَعامُل معهم، اذ كانت تصرُّفاته تفضحُ غطاءَهُ الذي حاوَلت الحُكومةُ الإبقاءَ عليه، وكان يتباهَى بأنَّ لهُ عِلاقاتٍ قويَّةٍ مع قيادةِ القواتِ البحريَّة ووزارةِ

الحَرب، وتقولُ الوثائِق أنَّ مهمَّةَ «دي وول» في أميركا كانت تنحَصِرُ في دَحض توقُّعاتٍ سابقةٍ لمُنجِّمين ألمان بانتِصار هتلر في الحرب، وبالفِعل قال المُنجِّم «دي وول» الذي كان يُسمِّي نَفسهُ (نوستراداموس العصري) أنَّ «النُجوم أظهَرت عكس التوقُّعات الألمانيّة وأنَّ هِتلر سَيُهزَم».

وبَعد أن ضَاقت الاستخباراتُ البريطانيّةُ ذَرعاً بالمُنجِّم «دي وول»... استَغنت عن خدَماته، وأظهَرت المُراسلات التي كَشف عنها أنَّ اقتراحاتٍ عدَّة قُدِّمَت للخَلاص مِن الرجل، من بينها ارسالُه الى مَنطقةٍ نائيّةٍ ليَغيب عن الأنظار، فيما كانَ هُناك اقتراحانِ آخرانِ تمَّ طمسُهُما في الوثائق.

لكنَّ الاستخبارات أبقَت على «دي وول»، بالرُّغم من أنَّ مدير العملياتِ الخاصّةِ «هامبرو» كان قد ضَاق بتصرُّفات المُنجِّم، وقال آنذاك: «أنا مُتأكِّد من أنّي لو تحقَّقتُ من عدد نجاحاتِ هذا الرَّجل سأجِدُها ربَّما مُساوية للمرَّات التي فشل فيها، لكِن ليس لديّ الوقت لذلك».

وغيرهم مع المنجّمين

ولم يكن «دي وول» هو المُنجِّم الوحيد الذي وَقف خلف القَرارات الألمانيّة النازية في القرنِ الماضي فَقد كانَ لِهتلر عرّافه الخاص واسمه « كارل برندلبرخت»، الذي استبدله عام ١٩٣٣ بـ «اريك هانوزون» مدير ما عرف بـ «معهد برلين للعرّافة».

وتزدادُ الأُمورُ طرَافةً بالرَّحيل شرقاً، إلى الاتّحاد السوفياتي، ومن بَعده وريثُه روسيا، لنقف مع «ستالين»، و«بريجنيف»، و«يلتسين». فمع رجلٍ حديدي ومُلحدٍ

ودمويٍ مثل «ستالين» (١٨٧٩ – ١٩٥٣) يُقال أنَّه كانَ يركن وبصورةٍ مستمرَّة إلى عرَّاف اسمُه «وولف ميننج»، وكان منوِّماً مغنطيسيّاً أيضاً.

وقد تنبَّأ «لستالين» بأنَّ مدينة «ستالينغراد» ستكونُ نقطة المواجهة الحاسمة بينَه وبين الألمان، فيما لجأ الى نفس العرّاف خَلْفُهُ الرئيس «نيكيتا خروتشوف» خلال أزمَة الصواريخ مع أميركا عام ١٩٦٢.

أمّا الرئيسُ الرُّوسي «بوريس يلتسين» وكبار القادة من حولِه فقد وصلَ بهم حدِّ الاعجابِ بالتَّنجيم والعرّافين وطُقوسهم لِحدّ أعلن فيه «يلتسين» انتماءَه لما عرف بـ«محفل الآشوريين»، وقد جَاراهم في ارتداء أزيائِهم وأخذِ صورٍ تذكاريَّةٍ معهم، أضف الى ذلك تقريبُه للطبيبة «دجونا دفتشتغالي» والتي كانت في صباها عرّافة الرئيس «بريجنيف»، والذي كان بدورِه يلجَأ للعرَّافة الشهيرة «فانغا»، ويقالُ أنَّها نصَحته بعدمِ غزوِ أفغانستان، ولكنَّه لم يأخُذ بنصيحَتها.

اللوحة غنيّة

لوحَة الغيبيّات وعشقُها مع الرُّؤساء «طويلةً وغنيَّةً»، وفيها أيضاً من الفيليبين الرّئيس «جوزيف سترادا»، ومن الأرجنتين الرئيس «كارلوس منعم»، ومن الهِند رئيس الوزراء «ديف غودا»، ومن أندونيسيا الرئيس «سوهارتو»، ومن السودان الرئيس «نميري». والقائمةُ طويلةٌ. إنتهى

هذا غيضٌ من فيضٍ وإلّا المُتتبِّع يَجدُ غرائبَ وعجائبَ في هذا المَجال، فانظُر إلى إغراء الشَّيطان وسيطرتِه على من بيدهِم الحَرب والسِّلم العالميّين، من رؤَساءٍ وشخصيّاتٍ بارزة عالميّاً وتأمَّل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ

فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[1].

إبطال السحر

بعد الاطّلاع على هذهِ الوسيلةِ من وسائل الشَّيطان لابُدَّ لنا من الحَذرِ منها وحتّى لا نقع تحت طائلتها، أمَّا كيف يمكن الوقوف بوجه هذه الوسيلة؟

بَعد انتهاء زمان النبوّات لا نَحتاج لأن نُعطي ضَوابط وموازينَ لمعرفَة المعجزةِ من السِّحر، وإن كُنَّا نَحتاجُ ذلك لِكشفِ أصحاب السِّحر مِمَّن يدَّعون أنَّهم أصحابُ كراماتٍ، والضوابطُ الّتي قدَّمناها تحت عنوان السِّحر والمعجزة تَنفع الناس بالتفريق بين السِّحر والكرامات، فقط نَحتاج إلى أن نبيِّن الفَرق بين المعجزة والكرامة، فنقول أنَّ المعاجِز هو خرقٌ للعادة يقترنُ مع دعوى النبوَّة، أمّا الكرامات فهي خرقٌ للعادة لا تصاحبُه دعوى النبوَّة، فنفسُ الضوابط التي تقدَّم ذكرُها تنطبقُ على الكرامة مع فارِق أنَّها لا تقترن بدعوى النُّبوة، وبهذا يُمكن التفريقُ بينها وبين السِّحر الذي تقومُ به طوائف وأفراد يدعون أنَّه كرامةٌ من الله لصحَّة معتقداتهم فتنطلي على بُسطاء العُقول مثل هذه الدّعوات.

وأمَّا ما يخصُّ اعتماد الناس على السحرةِ والمشعوذين، فنقولُ أنّ الغالبيِّة العُظمى ممَّن يدَّعون أنَّهم لهم القُدرة الماورائيّة على تغيير بعض المُجريات في حياة الأشخاص هم دجَّالون وكذابون ولا يمتلكون من القدرة شيئاً أصلاً سوى أنَّهم

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

وجَدوا في الأسواء بعض الكُتب التي تتحدَّث عن السِّحر وكيفيَّة عمله وأخَذوا يطبِّقون ما هو موجودٌ في تلك الكُتب. والحقُّ أنَّ أكثر مثل هذه الكتب إنَّما كتبت لغرض الشُّهرة والكسب المادِّي وليس شيءٌ ممَّا موجودٌ فيها يؤثِّر أثره، فليس كلُّ من يعمل في هذا المجال له القُدرة على عمل السِّحر وليس كلُّ الكتب التي كتبت في هذا المجال فيها شيءٌ صحيحٌ من السِّحر، فينبغي لمن لهم رغبةٌ في مثل هذه الأعمال ألّا يَقعوا فريسةً سهلةً بأيدي هؤلاء الدّجالين فيبتزُّونهم أموالهم وأعراضهم واعزّ ما يمتلكون.

وأمّا أوُلئك الذين يجيدون فنَّ السِّحر حقيقةً فهم قلائِل جدّاً حولَ العالم، وهم لا يمتلكون القدرةَ لفعل كلِّ شيءٍ بل فقط الأُمور التي تعلَّموها، ومن السذاجةِ بمكان الإعتقاد بقدرتهم الخارقة في كلِّ المجالات، والإلتجاء لَهم في كلِّ حاجةٍ، فالإستعانة بهم من المحرَّمات والكبائر في الشّريعة المقدَّسة وهو من الشّرك بالله سُبحانه وتعالى، وغير جائزٍ في وجهٍ من الوجوه، وهو من إتّباع الشَّيطان يُورد به الإنسان إلى الهَلَكة، يقولُ الله سبحانه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٩.

النجوى

الاختلاء ببعض الأصدقاء أو بمن تَربطُك بهم رابطةُ عملٍ أو اجتماعٍ او أيَّ شيءٍ آخر والتباحثُ في تلك الخَلوة والمجلس والتحدُّث بأُمورٍ لا يودُّ المتباحثون أن يطَّلع عليه غيرهم يسمَّى مناجاةً ونجوى، وفي مثل هذه المجالِس قد يكون الحديث في طاعةِ الله وذكره، وقد يكون في معصية الله، وفي الغالبِ ما يكون من قَبيل الثاني، لِذا وَرد في الكتاب العزيز: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]. فكثيرٌ من النَجوى لا خير فيها لأنَّها إن لم تكن في معصيةِ الله لا أقلَّ أنَّها في أُمورٍ لهويَّة خالية عن ذِكر الله سبحانه وتعالى لذا ليس فيها نفعٌ وخير.

والله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بأن يجتنبوا ما فيه ضررُهم في تلك المجالس وأن يتذاكروا بما ينفعُهم وما فيه صلاحُهم فقال لهم جلَّ مجده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. فاللهُ سبحانه نسب النجوى التي يتمُّ فيها إيذاء المؤمنين إلى الشيطان وحصرها به، فهي وسيلةٌ مهمَّةٌ من وسائله، فإنَّ التباحث في أعمال الخير ليس فيه ما يُعابُ به على صاحبه،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٢) سورة المجادلة، الآيتان: ٩ ـ ١٠.

حتى يكون سريَّاً وغالباً ما تكون في مرأىً ومسمعٍ من الناس وليس هناك مِن داعي لأن تكون تلكَ الاجتماعات سرِّيةً وبعيدةً عن أنظار ومسامع النّاس فإنَّ فاعل الخير يحبُّ أن يعرف به، إلّا بعض أعمال الخير التي من المصلحة أن تكون سرِّيةً.

في الخلوات يستفيدُ الشيطانُ انقطاع المشاغل عن الإنسان فيلقي تلك الأفكار المنحرفة والضّالة ويحفّز الإنسان على إرتكابها ويشوِّقه لها ويرسم له الخُطط لإنجازها، وقد يقوُم بعض رفاق السُّوء بهذا الدور خصوصاً ونحنُ قلنا سابقاً أنَّ الشَيطنة صفةٌ قد يتَّصف بها رجالٌ من الجنِّ أو الإنس لا فرقَ في ذلك، فشياطين الإنس أو الجنِّ يستغلُّون فترة خلوة الإنسان لتحفيزه على الانحراف من خلال النَجوى، فانظُر الى قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[1]. فالذين ظَلموا يحرِّضون على رفض دعوة أنبياءِ اللهِ ورُسُله سرَّاً، ويُزيِّنوا للآخرين أنَّ هذا الرَّفض يدعو إليهِ العقل، لأنَّ الذي يدّعي الرسالة هو بشرٌ مثلُكم فكيف يصحُّ أن يكون رسولاً عن الله!! فلا تنخَدعوا بما يأتي به من مُعجزاتٍ فإنَّ الذي يقوم به هو مجرَّد سحرٍ يمكن لأيِّ ساحرٍ القيام به. أليس هذا الكلامُ مقنعٌ لرفض دعوى الأنبياء؟ بلى ، مقنعٌ لكثيرٍ من الناس حتّى في مِثل أزماننا تجد أنّ كثيراً ممَّن يَنسبُ نفسه إلى الثقافة يقولُ أنَّ الأنبياء بشرٌ لا فرق بينهم وبين غيرهم بأيِّ نحوٍ من الأنحاء، وليس هناك معاجزٌ وخرقٌ للعادة بل اتباعُ الفهم الرَّجعي يفسِّرون تلك الحوادث على أنّها معاجِزٌ، فالعِلمُ بيَّن لنا أنَّه لا توجد معاجِزٌ في هذا العالم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣.

نفسُ الدعاوى القديمة تُكرَّر بلباسٍ جديدٍ عصري، وكثيرٌ من هذه الأفكار إنَّما تُتداول في المجالس الخاصّة والسرّية بدعوى أنَّهم يخافون من الاضطِهاد إن جَهروا بأفكارِهم ومعتَقداتهم، وانظُر إلى قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[1]. يقول تنازَعوا أمرَهم بينهم وأسرُّوا النَجوى، والحالُ أنَّ أسباب القوّة والمنعة بيدِهم أي بيدِ فرعون وملئِه فلماذا هذا التكتُّم؟! وممَّن يخافون ؟! من موسى وهو شخصٌ لا يملكُ إلَّا عصاه أو من أُناسٍ هم يعبُدون فرعون ويرَونَه إلهاً؟! نقولُ أنَّهم يعرفون الحقَّ ويخافونَ أن يظهرَ للناس فيتخلَّى الناسُ عنهم ويذهبُ ملكُهم وسلطانِهم، فلا بُدَّ من تدابير سرِّيةً تُطيح بصاحب الحقِّ على مرأىً ومسمعٍ من القوم، لذا فالسرّية بالتدبير مطلوبةٌ.

ابطال هذه الوسيلة

هُناك عدّة أُمورٍ يُمكن من خلالها أن نغلق الباب أمامَ الشيطان من هذه الجِّهة وَهي:

أوّلاً: أن نبتعِد عن شياطين الإنس، بمعنى أنَّنا لا نُصادق الأشخاص الذين يغذُّون الآخرين بالأفكار السيِّئة والمنحرفة، فإنّه مهما حاولت أن لا تستجيب لهم

(١) سورة طه، الآيات: ٦٠ ـ ٦٤.

بالنتيجة تجد نفسك في نفس الطريق الذين يسلكوه ما دمت مصاحباً لهم، لذا ورد عن النبيﷺ: «المرءُ على دين خليله فالينظر أحدكم من يُخالل».

وثانياً: أن نُصاحب من يكونُ عوناً لنا في طاعة الله وفِعل الخيرات، حتَّى يكونُ الاختلاء والنَّجوى معهم بالبِرِّ والتقوى، والحثّ على الاستقامة.

وثالثاً: أن لا نترُك فراغاً في أوقاتنا يُمكن أن يدخل من خلاله الشيطان بأفكارٍ سيِّئةٍ، والإنشغال بكلِّ ما فيه نفعٌ وخير.

ورابعاً: أن نستذكر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. فإذا استشعرنا وجود الله سبحانه وتعالى ومُراقبته فسوف نَرتدع من التداوُل أو التفكير بالأُمور السيِّئة والمنكرة.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧.

النزغ

ذكر صاحب لسان العرب تحت مادة نزغ:

النَّزْغُ أن تَنْزِغَ بين قومٍ فتَحْمِلَ بَعضهم على بَعضٍ بفسادٍ بينهُم ونَزَغَ بينهُم يَنْزَغُ ويَنْزِغُ نَزْغاً أغْرَى وأفْسَدَ وحمل بعضَهم على بعض والنزْغُ الكلام الذي يُغْري بين الناس ونَزَغَه حرَّكه أدنى حركة ونزَغ الشيطانُ بينهم يَنزَغُ ويَنزِغُ نَزْغاً أي أفسد وأغرى وقوله تعالى: (وإمّا يَنْزَغَنَّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بالله) نَزْغُ الشيطانِ وسَاوِسُه ونَخْسُه في القلب بما يُسَوِّلُ للإنسان مِن المَعاصي يعني يُلْقِي في قلبه ما يُفْسِدُه على أصحابه. وقال الزجاج معناه إن نالَك من الشيطان أدْنى نَزْغٍ ووَسْوسةٍ وتَحْريك يَصْرِفُك عن الاحتمال فاستعذ بالله من شرّه وامْضِ على حكمك .

وذَكر الراغبُ الاصفهانيُّ في مفرداته عبارةً مختصرةً وجامعةً في معنى النَزْغْ حيث قال: النَّزْغُ: دخولٌ في أمرٍ لإفسادِه.

والقرآن الكريم يذكر لنا إنموذجاً من هذه الوسيلة لإفساد العلاقة بين الأُخوة حيث أغرى الشيطان إخوة يوسف بقتله أو إقصائه عن أبيه، كما حَكى الله سبحانه عنهم: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1]. وهذا الذي فعلُوه به كان بسَبب نَزغ الشيطان كما قال يوسفُ عليه السلام بعد أن جَمع الله شملهم : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٨ ـ ٩.

الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]. كثيرٌ منَّا لا يلتفتُ إلى سبب العداوةِ بين الأصدقاء أو الأُخوة أو بين أصحاب المذهب الواحد أو الدّين الواحد ويعزو ذلك إلى أسبابٍ غير حقيقية لو تأمّل بها الشَّخص لوَجدها تافهةً لا تستحقُّ الإقتتال والعداوةَ والقطيعةَ والسببُ الحقيقيُّ وراء تلك المنازعات هو نزغُ الشيطان، فنحن لو تأمّلنا جيِّداً في النموذج الذي ذكرَه القرآن لاتَّضح لنا الحالُ حيث أنَّ إخوة يُوسف من سُلالة أنبياءٍ فهم أبناءُ يعقوب بن إسحاقٍ بن ابراهيم تربَّوا في حجر النُّبوة ويترنَّم الوحي في أسماعهم من نعومة اظفارهم، هذا مُضافاً إلى أنَّ الذي كادُوه بالعداوة هو أخٌ لهم من أبيهم فهناك رابطةُ نَسبٍ فضلاً عن رابطةِ الدّين، فكيف تسنَّى لهم أن يرموا كلَّ المبادئ التي تربَّوا عليها وراء ظهورهم، واشاحوا بوجههم عن رابطة الدّم والأُخوَّة، ولَم يراعوا حالَ أبيهم الشيخُ الكبيرُ حيثُ فجعوا قلبهُ بأحبِّ أبنائِه إليه، وهذا الأمر لم يكن غائباً عن إدراك يعقوب عليه السلام من حين رُؤيا يوسف حيثُ قال له: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2]. فيعقوب عليه السلام يعلمُ أنَّ الشيطان سوف يتدخَّل في الأمر بكلِّ قوَّته فحاول من أوّل الأمر أن لا يُعطي ذريعةً بيده من أوّل الأمر، فَنهى يُوسُف من أن يقُصَّ رُؤياه على إخوته لأنَّهم سيفهمون منها أنَّه سيكون صاحبَ شأنٍ فيدُبَّ الحسدُ في نُفوسِهم.

فإذا كان اُخوة يُوسف وَهُم من سُلالة النبيين وقعوا بيد الشّيطان من خِلال هذه الوَسيلة فكيف يكونُ حال غيرهم؟!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٥.

نحنُ لو نظرنا إلى حال النّاس في كلِّ زمانٍ ومكانٍ لوجَدنا أنّهم مُتفرّقين طرائق قدداً، وكُلُّ حِزبٍ بما لديهم فرحون، ويتقاتلُون فيما بَينهم وتُزهق النُّفوس وتُهتك الأعراض وتُنتهب الأموال، فهل هناك سببٌ حقيقيٌّ يدعو إلى ذلك؟

الأديانُ السماويةُ تُحدِّد علاقةَ الإنسان بأخيه الإنسان على أساس الإيمان وولاية الله وأوليائَه، فالتّواصل والمودَّة والمحبَّة هي مع كُلِّ من يرتبط بالله سُبحانه والقَطيعة والبغضُ مع كلِّ من يكفُر بالله وينصب العداء لأنبياء الله وأوليائه، وليس هناك من أساسٍ آخرٍ للإرتباط والقطيعة مع الناس لا أعراقٌ ولا أنسابٌ ولا لُغةٌ ولا مُواطنةٌ ولا أيِّ سببٍ آخر، فالإرتباط بالله هو الأساس للمحبَّة والعداوة، وهذا ما أكّد عليه القرآن الكريم بما لم يؤكِّد على شيءٍ مثله أبداً، ولكن مع ذلك نَجد أنّ الميزان بين الناس في الارتباط مع بَعضهم لا يقوم على ذلك الاساسُ فهناك عِداءٌ واقتتالٌ بين الأخوة والأقرباء والعشيرة الواحدة والملَّة الواحدة، والسبب المُعلن هو تزاحم المصالِح وتقاطِعها، أمّا السبب الخفيُّ فهو في الواقع نَزغُ الشّيطان الذي يصوِّر للإنسان أنَّ مصلحته في عداء أخيه وقِتاله وقَتله ويُغريه بكلِّ الوسائل حتّى يُوقِعه في حبائِله كما فَعل مع إخوة يُوسف.

المحبَّة والتّسامح

قُلنا أنَّ من أهمِّ المبادئ التي أكَّد عليها القرآن هو الارتباطُ بالعقيدة والأُخوَّة الإيمانيّة، وينبغي أن لا يكون أيَّ سببٍ يدعو إلى الفرقة والعَداء والتناحُر، لأنَّ الارتباط الإيماني إذا حصل كلُّ الأسباب الأُخرى للقطيعة تكونُ أسباباً غير مهمَّةٍ نابعةٍ من مصالح شخصيَّة ضيِّقة، فلو أردنا أن نجري مقارنةً بين الإرتباط النَسَبي والإرتباط الإيماني فإنَّا نَجدُ أنّ هناك كثيراً من الجوانب المهمَّة تُرجِّح الارتباط الاعتقادي على النَسَبي:

منها: إنّ الارتباط النَسَبي هو دُنيوي فقط يَنقطع بموت الإنسان، امَّا العقيدي فإنَّ العلاقة تستمر إلى يوم القيامة لذا يقولُ الله سُبحانه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[2].

ومنها: إنَّ الإرتباط النَسَبي للإنسان لم يُخيَّر فيه خرج إلى الدُّنيا وجد أنَّ أباه فُلانٌ وأخاه فلانٌ وعمّه فلانٌ، أمّا الإرتباط العقيدي الإنسان هو الّذي يختارُه ويُؤمن به.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

ومنها: إنَّ الإنسان في التّرابط النَسَبي قد لا يرى أنَّ هناك تقاربٌ روحيٌّ ونفسيٌّ مع من يرتبط معه نسبيّاً، أمّا اصحاب العقيدة الواحدة نرى أنّ هناك تقاربٌ وانسجامٌ روحي ونفسي.

ومنها: نَجِد أنَّ كثيراً من المرتبطين نسبيَّاً يختلفُون في الأفكار والمبادئ أمّا أصحابُ العقيدة نجد فكرَهم وعقيدتَهم ومبادئُهم واحدةً.

ومنها: إنَّ الإنسان يُمكنه أن يقطع كلَّ علائِقه النَسَبيّة ولا تدعوه قطيعته أن يغيِّر شيئاً من منظومته الفكريّة والعقائديّة والاخلاقيّة، أمّا القطيعة على أساس الاعتقاد فإنّها لابدّ أن تُغيِّر معها كلَّ قيم الإنسان وأفكاره ومنظومته بل قد تدعوه لتغير كلِّ المحيط حوله ويُهاجر ويترُك كلّ شيءٍ ورَائه، يقولُ سبحانه: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

وهناك جوانبُ غيرها كثيرة لو أردنا استقصائَها جميعها تُبيِّن أنّ الارتباط العقيدي أوثق عُرىً وأشدُّ اصرةً من الارتباط النَسَبي، فإذا كانَت رابطةُ العقيدة بهذه القوّة فلا ينبغي أن يكون الاختلاف بين بَني العَقيدة الواحدة يدعو إلى الفُرقة والقَطيعة والعَداء والضَغينة، فإنَّ كلَّ ذلك يكونُ من نَزَغ الشيطان وإغرائِه.

---

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٣ ـ ٤.

نعم؛ قد يُقال بأنّ الناس الآن في أوطانِهم ليسوا متَّفقي العقيدة فكيف الارتباط معهم في مُجتمعٍ واحدٍ ولا يُمكن أن نُعادي كلَّ الناس المختلفين مَعنا؟

نقول: ليس الأمرُ كذلك أكيداً فغيرُ مطلوبٍ من المؤمنين قتالُ غير المؤمنين ما لَم يكُونوا محاربين لأهل الإيمان بل القرآن أرسى أسُس التسامُح والتعايش السلمي بين النّاس، لذا يقول الله سبحانه: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1]. فالصَّفح معناه تجاوز أذاهُم والسّلام أي أنَّه ليس بيننا وبينكم حربٌ واقتِتال.

فهذا هو المبدأ القرآنيُّ للتّعايش بين أبناء العقيدة الواحدة وبين غيرهِم، وأمّا أسباب العداوة والاقتتال فإنَّ مُعظمها ترجع لِنَزغ الشَّيطان، يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾[2].

وأمّا كيف نَقف أمام هذه الوسيلة وإبطالها؟ نقول:

أوّلاً: بالتَّنبه إلى ما ذَكرنا وهو أنّ سبب العَداء والقَطيعة لا يكوُن إلّا بسَبب الايمانِ والمحاربةِ وكلّ الأسبابِ الأُخرى ينبغي أن لا توصلَ إلى العَداء أو القطيعة، حتَّى تعيش الناسُ في سلامٍ فيما بَينهم.

وثانياً: القولُ الحَسَنُ بين الناس يَدعو إلى المحبَّة والوئام والقُرب من الآخرين، وهو خفيف المُؤنة لا يُكلِّف الإنسان شيئاً، فالكَلمة الطّيبةُ كالبذرَة تُنبتُ

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩١.

في نفوس الآخرين وتُثمر المحبَّة، لذا يقولُ الله سبحانه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[١].

وثالثاً: الإستعاذةُ بالله سُبحانه من نَزغِ الشّيطان كما يُعَلّم القرآن الكريم النبيَّ الأكرم ﷺ حيثُ يقول: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[٢].

الوعودُ والأمانيّ الكاذِبة

قالَ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣].

حينَما يلزَمُ شخصٌ نفسه بإنجاز أمرٍ مُستقبلاً ويُعلِّم الآخرين أو من يَخصُّهم ذلك الإلتزام، فهذا يسمَّى عِدَةً ووَعداً، فالوَعد هُو إخبارُ الغَير عن التزامِ المتكلِّم عن انجازِ أمرٍ في المستقبل.

وَرد في شرح حدود ابن عَرفة ص٥٦٠ قال العِدة: هي إِخْبَارٌ عَنْ إِنْشَاءِ الْمُخْبِرِ مَعَ وَفَاءٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وقد يلتزمُ الشخصُ بإنجاز فِعلٍ فيه خيرٌ ومصلحةٌ للغير، وقَد يلتزمُ بإنجاز فعلٍ في شرٍّ ومفسدةٍ للغير، لذا قيل إنّ الوَعد يُستعملُ في الخَير والشّر، والإيعاد والوَعيد يُستعمل في الشرِّ خاصّة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٠.

ولمَّا يُنجزُ الفعلُ الذي التَزم به الشَّخص يكوُن صادقاً في وَعـدِه، لأنَّـه التَـزم وأنجز، وأمَّا إذا لم يَفعل ما التزم به وأخلف وعده يكون كاذباً في الوَعد.

وخُلفُ الوعد يُستقبحُ فـي نَظـر العُقـلاء ويُسـتهجن، لأنّـه يَـدخُل فـي دائـرة الكَذب، أمّا خُلفُ الوَعيد ليس الأمرُ فيه كذلك، لأنَّه يدخل في دائرةِ الكَرم والعفـو والسَّماح، فإنَّك إن وَعَدت أن تُعاقب شخصاً على معصيتك ثمَّ بعد المعصية تَعفو عنه ولا تُعاقبه لا يقال لك إنّك كذبت ولا يُستقبح فعلك، بل قد يكون ممدوحاً فـي نظـر العُقلاء.

لذا نجدُ في كثيرٍ من الآياتِ القرآنيّةِ هناك وَعْد ووعيد، والله سبحانه يبيِّن على نحو الحتم أنّه يُنجز وعْده، ولكن يؤمّل الناس بأنّه قد يخلُف وعيده ويعفو عـن سيّئاتهم، فعقوبتهم وعذابهم ليس أمراً حتميّاً، بل قد يخضع للكرم الإلهـيّ والرحمـة واللُطف.

هناك كثيرٌ من الوعود الإلهيّة التي يقطعُها على نفسه ذكرها القرآنُ الكريمُ، وهي غير قابلةٍ للخُلف إذا تحقّق موضوعها، نذكُر بعضاً منها وهي:

منها: وَعْدُ الله زيادة النّعمة إذا أدّى الإنسان شُكرها حيـث قـال: ﴿وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

ومنها: إنّ وراثةَ الأرض لأهل الإيمـان والتقـوى كمـا قـال سـبحانه وتعـالى: ﴿وَعَدَ اللَّـهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِـنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِـي الْـأَرْضِ كَمَـا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِـنْ بَعْـدِ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١].

ومنها: وعدُ الله لأمِّ موسى أنّه يُرجِع لها ولدها إذا ألقته في اليَمِّ، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢]، الى أن قال ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

ومنها: وعدُ الله للمؤمنين بالنّصر والغَلَبة، قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[٤].

وهناكَ شواهد كثيرةٌ لإنجازِ وعد الله سبحانه وتعالى يذكُرُها القرآن، بل قد يُقال أنَّا لا نحتاج إلى شاهدٍ على ذلك، لأنَّ الذي يُعِد ولا يستطيع أن يَنجز عِداته أمّا أنَّه عاجزٌ عن الوفاء بالوعد، وأمّا أنَّه يُبخل فلا يريد أن يعطي ما وَعد، وأمّا أنَّه كان يَجهل أنَّ الوفاء بالوعد يخالفُ مصلحته، وكلُّ ذلك منتفٍ في حقِّ الله سبحانه وتعالى فهو القادرُ الكريم العليم، فما الّذي يُعيقه عن الوفاء بوَعده.

وهذه الأمثلةُ التي ذكرناها هي أمثلةٌ في حياتنا الدنيا، أمّا بالنسبة إلى الآخرة فقد وَعَد الله المؤمنين مغفرةً وفضلاً وجنّاتٍ تجري من تَحتها الأنهار ومساكنَ طيبةٍ،

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

(٣) السورة السابقة، الآية: ١٣.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

كما تذكرُ آياتٍ كثيرةٍ ذلك نذكُر بعضاً منها، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

كما أنّه سبحانه وعَد المنافقينَ والكافرين النارَ والعذاب الأليم حيث قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[٤]. وقال سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٥].

هذه وعودُ الله سبحانه وتعالى التي لا تُخلف وكثيراً ما أوصى المؤمنين بعدم الغفلة عن ذلك من قبيل قولِه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[٦]. لكنّا نَترُك الوعد الحقّ ونغترّ بالدنيا ومباهِجها،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٤) السورة السابقة، الآية: ٦٨.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

(٦) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

ويغرُّنا الغَرور وهو الشيطان، فنحنُ نقف بين مفترقِ طريقٍ بين دعوة الله إلى المغفرة والرضوان وبين دعوة الشيطان، وترى كثيراً من الناس يسلكون طريق الوُعود الكاذبة والأماني الضّالة استجابةً لدعوةِ الشيطان.

لنأتيَ إلى وعود الشيطانِ حيث ذكر القرآن الكريم أنَّهُ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، فماذا يعِدُ الشيطانُ؟ وكيف يثِقُ الإنسان بوعوده؟

تارةً الناس لا تحتاج إلى ضماناتٍ من أجل إمتثال أمرٍ أو طاعةِ أحدٍ، لأنَّ الأمر والطاعة تُوافق الأهواء والرَغبات، فلا يحتاج إلى كثير إغراءٍ ولا إلى وعودٍ على إنجاز مثل هذه الأفعال، واُخرى أنَّ بعض الناس يُخالف هواه ويَستمع لصوتِ العقل بقُبح الفعل وسوء عاقبته، فهنا الشيطان لابُدَّ له من زيادة الإغراء لمثل هذه الفئة من النّاس، فيقدِّم لهم ضماناتٍ حتّى يُطمئنهم فلا يستمعوا لصوت العقل، كما حصل مع آدم وحوّاء حينما أراد أن يغريهم بالأكل من الشّجرة أقسَم لهُم أنَّ في الأكل منها الخُلد وملكٍ لا يبلى وأنّه ناصحٌ لهم في هذا القول لذا اغترّا بقوله وامتثلا أمره، كما قال سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[1].

فوعودُ الشيطانِ هي بحسب نوع الفِعل الذي يُريد أن يَقدَم عليه الإنسان إذا كان فيه طاعةٌ لله سبحانه وتعالى، فحينما يُريد المؤمن أن يُنفق في سبيل الله امتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته يدخُل الشيطانُ على الخطّ لكي يُثنيه عن هذا الفعل بشتّى الطُرُق حتّى بالوعود الكاذبة كما يقول سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠ ـ ٢٢.

بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]. فهُنا يقولُ له إذا أنفقت مالك للغير فأنا أعدك أنّك ستصبح فقيراً محتاجاً إلى الناس، فلا تُعطي منه شيئاً وادّخِره لساعةِ العسرة.

وحينما يَحُثُّ الكافرين والمشركين على قتال أهل الإيمان لإبطال الدّعوة الإلهيّة يعدُهم أنّه يقِفُ في صفِّهم ويُقاتل معهم بثباتٍ وبسالةٍ ولكن لا يَلبث أن يَنكشف زيف وعودِهِ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢].

وهكذا في كثيرٍ من مجالاتِ المعصيةِ يعدُ الإنسان بالحُصول على اللذَّة، كلذَّة النّساء أو جمع الأموال من الحَرام أو التسلّط على رقاب الناس، ثمّ يعدُهُ أنّه سوف يتمكّن من التوبة بعد ذلك وأنّ العُمُر لا يزالُ في أوّله والطريقُ أمامهُ طويلٌ وبإمكانه أن يتدارك ما فاتَه بعد ذلك، حتّى يدهَمَه الموتُ فيجدُ أنَّ الأمر قد انتهى ولا يُمكن أن يفعَل شيئاً، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

هذا بالنسبة إلى وعدِ الشيطان أمّا الأمانيِّ الكاذبة فيستعملُها كما يستعمل الوُعود، ويجعلها وسيلةً لكي يُغري بها الإنسان، فلنتعرّف على الأمانيّ ما هو المرادُ منها؟ وكيف يستعملُها الشيطان؟ فنقول:

المَنَى: التّقدير. يقال: مَنَى لك المانيّ، أي: قَدّر لك المُقدّر. كما ورد في مفردات الراغب الاصفهاني، وقال: والتَّمَنّي: تقديرُ شيءٍ في النّفس وتصويرُه فيها، وذلك قد يكون عن تخمينٍ وظنّ، ويكون عن رويّةٍ وبناءٍ على أصل، لكن لمّا كان أكثرُه عن تخمينٍ صار الكذب له أملك، فأكثرُ التّمنّي تصوّر ما لا حقيقةَ له. وقال: والأُمْنِيَّةُ: الصّورةُ الحاصلةُ في النّفس من تمنّي الشيء، ولمّا كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له وإيرادُه باللفظ صار التّمنّي كالمبدأ للكذِب، فصحّ أن يُعبّر عن الكذِب بالتّمنّي.

ومن خلال هذا الايضاح يتبيّن أنَّ الشيطان يصوِّر للإنسان أُموراً لا حقيقة لها ولا واقع، من أجل أن يخدَعه ويُغريه في الوقوع بالمعصية، قال الله سبحانه حكايةً عن الشيطان: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. فمن المُمكن أن يصوِّر الشيطان أنّ ما تريدُ أن تفعله ليس فيه معصيةٌ لله وإذا كانت فيه معصية فهي ليست من الكبائر أو ممَّا تستحقُّ عليه العُقوبة أو حتّى اذا كنت تَستحق العقوبة فإنَّ الله غفورٌ رحيم،

(١) سورة النساء، الآيات: ١١٧ ـ ١٢٠.

كلُّ هذه أماني يُمني بها الشيطانُ الإنسان من أجل أن يُضله ويُبعدُه عن رحمةِ الله ورضوانِه.

أمّا كيف نَستطيع أن نَقِف في وجه هذه الوُعود والأمانيّ الكاذبة ؟

نقول لابدّ أوّلاً أن يُحكِّم الإنسان عقله في إنجاز الأفعال التي يُريد أن يَقدِم عليها، وحتّى إذا كانت نتائِجُها ممَّا لا يتوقّعها العقلُ من قبيل إنفاق الأموال في سبيل الله فبحَسَب حسابات العقل أنّها تنقصُ لكنَّ الله سبحانه وتعالى وعَد بتنميتها وزيادتِها، فإذا آمن الإنسان بقدرةِ الله وعلم الله وكرمه سوف يتيقَّن من أنَّ الله سبحانه وتعالى سيُنجز له وعدَه، ولا يستمعُ لوعود الشيطان بالفقر، فوعدُ الله أحقُّ بالتصديق لا وعد الشيطان، لأنَّ الشيطان مخلوقٌ من مخلوقاتِ الله وتحت قدرته، لذا تَجده عاجزاً عن جلب الخير لنفسه فضلاً عن أن يجلب الخير لغيره، أمّا الله سبحانه وتعالى فبيده مقاليدُ السموات والأرض، وهو المتصرِّف بمُلكه كيف يشاءُ لا يُسألُ عمّا يَفعل وهم يُسألون.

وأمّا بالنسبة إلى تصديقِ الأماني، فالإنسان كيف له أن يضمن أنّه يحصل على مغفرةِ الله ورحمتِه ورضاه، خصوصاً أنَّه وَرد أنَّ الله أخفى غضَبه في معصيته وأخفى رضاه في طاعته، فكلُّ معصيةٍ أو فعلٍ يحتقرُه الإنسان لعلّ غضب الله كامنٌ فيه، أو يحتقر فعلاً فلا يأتيه ورضا الله كامنٌ فيه، ولا يغترَّ بقوّتِه وشبابه وغناه وطول عُمره فكلُّ شيءٍ قابلٍ للتغيير بلحظةٍ واحدةٍ، فلا تنطلي عليه الأماني الكاذبة حتى يَجدَ نفسه صريعاً تحت بريقها ولاتَ حين مندمٍ.

مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد

الآية القرآنية وهي: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. واضحةُ الدلالةِ خصوصاً أنَّها صادرةٌ من الله سبحانه وتعالى وموجّهةٌ إلى الشيطان وهو المخاطب بها، فما المراد من مشاركةِ الشيطان للإنسان في أمواله وأولاده؟ وكيف تكون المشاركة؟

يقول الراغب الاصفهانيُّ في المفردات:

الشِّرْكَةُ والْمُشَارَكَةُ: خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيءٌ لاثنينِ فصاعداً، عيناً كان ذلك الشيء، أو معنىً، كَمُشَارَكَةِ الإنسان والفرس في الحيوانيّة.

شركةُ الشيطان مع الإنسان في الأموال يحتمل فيها أمران وكلاهما يمكن أن يكون مقصوداً:

أمّا الأوّل: وهو أن يوفّر للإنسان أسباب الرزق المُحرَّم فيمتلك الإنسان أموالاً بمساعدة الشيطان من طريقٍ غير مشروعٍ فيكون الشيطان شريكاً لأنَّه وفّر للإنسان أسباب الكسب، فالأموال التي عندهُ لم يحصل عليها بجهده الخالص وإنّما من خلال مساعدةِ الشيطانِ بتوفير مقدّمات الكسب المُحرَّم، فالشيطان يكون شريكاً في الأموال، والشواهد على هذا النوع من الشركة واضحةٌ بأدنى تأمُّلٍ، فإنَّ طرق كسب الأموال في مثل هذه الأزمان باتت أكثر احتيالاً واستغلالاً ودناءةً ، حتّى باتت رؤوس الأموال بيد مجموعةٍ صغيرةٍ في العالم هي التي تتحكَّم بمصير البشر.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

وامّا الثاني: هو أن يستعمل الشيطان أموال الإنسان للإستفادة منها لتحقيق أغراضه، وأهمُّ تلك الأغراض هي إضلالُ الناس وابعادهم عن الله سبحانه وتعالى وعن سعادتِهم، وهو بذلك يكون شريكاً في الأموال لأنّه انتفع منها في تحقيق ما يريد، والشواهد على هذا النوع من الشركة أكثر ممّا يحصى، فانظُر إلى كلِّ أسباب الضلالة والإنحراف التي تروَّج بين الناس كيف يتمُّ تمويلها من أفرادٍ وجماعاتٍ ومؤسساتٍ وغيرها، كلُّها تشترك لتوفير رأس المال من أجل أن تنشئ مشاريع ضلالةٍ وانحرافٍ عن الطريق المستقيم والأخلاقِ الفاضلة.

وحتّى لا يكون للشيطان نصيبٌ في أموالنا لابُدَّ أوّلاً أن نتفحَّص أسباب الرزق ووسائله ونتأكّد من مشروعيّتها حتى نحصل على أموالٍ خالصةٍ من الشُّبهات والمحرَّمات، وثانياً مراقبةُ صرف تلك الأموال التي نحصل عليها حتى لا نجعلها وسيلةً بيد الشيطان يستعملها لإغواءِ الناس وإضلالهم، فإنَّ الأموال هي وسيلةٌ من وسائل السعادة للإنسان لكونها توفّر له ما يحتاج إليه من ضروريّات الحياة ورفاهها فهي توفّر له نصيباً من السعادة إذا استثمرها بنحوٍ صحيحٍ فتجعله سعيداً في الدُّنيا والآخرة يقول سبحانه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[1].

فالمفروض أوّلاً أن يستعمل ما أُعطي له في شراء سعادته الأُخرويّة لأنَّها هي الحياة الباقية ومن ثمَّ يأخذ نصيبه من الدنيا بعد ذلك.

هذا بالنسبة إلى المشاركة في الأموال.

وأما المشاركة في الأولاد كيف تكون؟

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

فهي أيضاً تتصوّر على وجهين:

الأوّل: أن يولد الابن عن طريق الحرام، وطريق الحرام قد يكون واضحاً كما في الزنا وهو منتشرٌ انتشاراً فاحشاً في البلدان الغربيّة وإحصاءاتهم في ذلك مهولةٌ جداً، وقد يكون بطريقٍ خفيٍّ وهو أن يستعمل المال الحرام في الزواج والطعام فتتكون النطفة من حرام، وهذا لا يتنبّه له كثيرٌ من الناس.

والثاني: أن يتكون الجنين من الحلال ويولد ومن ثمَّ يتربّى تربيةً منحرفةً عن الاستقامة والفضيلة.

وفي كلا الوجهين يكون الشيطان شريكاً في الأولاد، حتّى يكون هؤلاء الأولاد في المستقبل صيداً سهلاً له لأنَّ أصل وجودهم بُنِيَ على خطأٍ فداعي الانحراف يكون فيهم أقوى، وبعد أن يقعوا في مصيدته يحوّلهم جنوداً له يستعملهم في اضلال الناس ويبني له جيشاً من شياطين الإنس.

وحتّى يتجنَّب الناس هذه الشركة أيضاً لابدَّ أن يختاروا لنطفهم ولأولادهم أُمّهاتٍ عفيفاتٍ وطاهراتٍ ويتزوجون من خالص أموالهم ويوفّروا الطعام الحلال لأهلهم وأولادهم، وأن يربوهم على المبادئ والقيم السامية والأخلاق النبيلة، فينجوا من شركة الشيطان في أولادهم.

تَعْرِيَةُ الإنْسان

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

هذه الآياتُ المباركة تُبَيِّنُ بوضوح أنَّ أوّل سببٍ للعريّ كان هو الشيطان، كما تقول ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، من أجل إثارة الغريزة عند الإنسان، فإنَّا نرى في هذه الأزمان شاعت هذه الثقافة بين كثيرٍ من الشعوب والأُمم وأصبحت هناك جزرٌ ونوادي ومحافل للعريّ، وتغلغلت هذه الثقافة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعيّة واستخدمت الماكنة الإعلاميّة لترسيخها من خلال الفضائيّات والقنوات الاباحيّة والاعلانيّة والمواقع الاباحيّة على الشبكة العنكبوتيّة وفي اعلانات أغلب البضائع التجاريّة تستخدم هذه الوسيلة لترويج السلع في الأسواق، وأصبح العري والجنس صناعةً تشترك بها كبرى الشركات العالميّة وتجني من ورائها مكاسباً وأرباحاً طائلةً جدّاً تفوق الخيال.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٢٦ ـ ٢٨.

هذا كله من أجل أن يكون الإنسان في أسار الشهوة والرغبة الجنسيّة، ولا يستطيع أن يقاومها أو يقف في وجهها، فيكون أداةً طيّعةً لكلِّ ما يراد منه، وينشغل عن الهدف الذي خلق الإنسان من أجله وهو الخلافة على الأرض، وهذا هو هدف الشيطان كم تذكر الآية السالفة الذكر، فمن يمشي في ركب الشيطان يكون من أوليائه، ويفعلون الفواحش ويستخدمون شتّى الأساليب لتبريرها كما في الآية، فإنَّ في تلك الأزمان كانت تبريراتهم أنَّهم وجدوا آبائهم يفعلون تلك الفواحش أو أنَّهم مأمورون بفعلها من الله سبحانه وتعالى، أمَّا في مثل زماننا فهناك تبريراتٍ أُخرى تحت مسمّياتٍ متعدّدة من قبيل الحريّة الشخصيّة وحقوق الإنسان وحريّة التعبير وما شاكل ذلك.

فهذه الوسيلة في الواقع هي من أقوى وسائل الشيطان وقل من يسلم منها، لكون غريزة الجنس من أقوى الغرائز في الإنسان على الإطلاق، فيأتي له من نقطة ضعفه هذه، ومن المعلوم أنَّ هذه الغريزة أُودعت في الإنسان لأجل ديمومة نوعه على الأرض، ولكن غالبية الناس لا تلحظ هذه الغاية ولا يهمّها بقي الإنسان على الأرض أو لا، وإنَّما المهمّ هو الالتذاذ والنشوة التي يحصل عليها من هذه الغريزة، لذا نرى أغلب الناس لا تتقيّد بالقيود الاجتماعيّة والأخلاقيّة والدينيّة التي تدعو الإنسان أن يشبع غريزته من منافذ محدّدة، خصوصاً عندما يوقظ مارد الشهوة بسبب ما يحيط الإنسان بكل وسائل الاثارة وتفعيل تلك الرغبة حتّى تكون هي شغل الإنسان الشاغل وغايته الأساسيّة في الحياة.

ومن الصعب جدّاً الوقوف بوجه هذه الغريزة الجامحة في حال نشاطها وثورانها، لذا نرى خالق هذه الغريزة عندما يريد أن يرشد الإنسان للسيطرة عليها يوجّهه إلى الابتعاد عن كلِّ ما من شأنه أن يوقظها ويفجِّر بركانها، لأنَّه يعلم في أنَّه

في حال هياجها عدم الانصياع لها يكون شبه مستحيلٍ، لذا قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

فهو سبحانه يريد أن يقي الإنسان من الوقوع في أسار هذه الغريزة فيسهل انقياده للشيطان، فاللباس والستر يغلق أهمَّ سببٍ لثوران تلك الغريزة، خصوصاً إذا ارتدى الإنسان قبل ذلك لباس التقوى وجعل خوف الله نصب عينيه، فإنَّه حينئذٍ سيلجم تلك الغريزة بلجامٍ تنقاد به طائعةً ممتثلةً لما يريده منها.

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

الخَمْرُ والقِمَار

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[١].

أُريد في هاتين الوسيلتين وهما الخمر والميسر أن لا أتحدّث من وجهة نظرٍ دينيّةٍ نظريةٍ، بل من جهةٍ عمليّةٍ، والكلام سوف لا يكون لي وإنَّما أنقل بعض المقالات التي تتضمّن دراساتٍ وتقارير مهمّةٍ في أضرار الخمر والقمار ليطّلع القارئ على أضرار هاتين الوسيلتين بالنسبة للإنسان، مع ملاحظة أنَّ هذه الأضرار المذكورة في التقارير ليس هي كلّ ما موجود في الخمر والقمار، وفيما يلي هذه المقالات[٢]:

كشفت منظَّمة الصّحة العالميّة الجمعة، أنَّ إساءة استخدام الكحول يسبب ٢.٣ مليون وفاة في العالم كل سنة.

وقالت المديرة العامّة للمنظمة الدكتورة مارغريت تشان، اليوم في افتتاح ندوة السياسة العالميّة لمكافحة الكحول في اسطنبول، إن "الكحول قد تكون قاتلة.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) في هذا الموقع الالكتروني (http://news.askmorgan.net/health/39750-2013-04-30-06-18-43) ورد هذا التقرير تحت عنوان: الخمور تبني مقبرة مليونيّة سنويّاً في العالم، يوم الثلاثاء، ٣٠ أبريل ٢٠١٣ ٩:١٨ صباحاً

حيث تقدّر منظمة الصّحة العالميّة أن يكون الاستخدام السيئ للكحول مسؤولاً عن ٢.٣ مليون وفاة في العالم كل عام".

وأوضحت أنَّ "الكحول قد تقتل ببطء، إذ إنَّها تقود تدريجيّاً إلى أمراضٍ مثل تشمّع الكبد والسرطان في عدّة مواقع".

وقالت أيضاً إنَّ "الكحول قد تقتل أحياناً بشكلٍ فوريٍّ حين تساهم في حوادث سيرٍ وجروحٍ وعنفٍ وجرائم عنيفةً وانتحاراً".

وأسِفَت لأنَّ استهلاك الكحول يزداد بسرعةٍ في دول تفتقد إلى القوانين التنظيميّة الضروريّة لحماية السكان من الأضرار الناتجة عن الكحول.

وأكّدت دراسةٌ قديمةٌ أنَّ تناول كأسٍ واحدةٍ من المشروبات الكحوليّة يوميّاً يمكن أن يرفع خطر الاصابة بمرض السرطان.

وقالت الدراسة إنَّ تناول مقدارٍ بسيطٍ من الكحوليّات مسؤولٌ عن وفاة ٣٤ ألف شخصٍ في أنحاء العالم سنويّاً.

وبيّنت أنَّ البحث القديم الذي شمل أكثر من ١٥٠ ألف رجل وامرأة، أوضح أنَّ شرب الكحوليّات بشكلٍ خفيفٍ يزيد من احتمال الاصابة بسرطان الفم والبلعوم والمريء والثدي.

ووفقاً للدراسة التي نشرتها "آنال اونكولوجي" (دوريّة علم الأورام)، التي حلّلت بياناتٍ حوالي ٢٠٠ مشروعٍ بحثي، تزيد كأساً واحدة من الكحوليّات يوميّاً خطر الاصابة بسرطان المريء بمقدار الثلث، كما أنَّ تناولها بمقدارٍ بسيط يزيد خطر اصابة جوف الفم والبلعوم بمقدار ١٧٪ وسرطان الثدي، بمقدار ٥٪.

ويقول الباحثون "تزيد الكحوليّات، حتّى وإن كانت بجرعاتٍ قليلة، خطر الاصابة بالسرطان".

وكانت دراسة لمؤسستين ألمانيتين للبحوث الصحيّة حذّرت من وجود علاقة وثيقة بين الإصابة بسرطان الحلق والمريء ومعاقرة وإدمان الخمور.

وذكرت الدراسة التي أصدرتها الهيئة الألمانيّة لمكافحة الإدمان ومركز بحوث أضرار الخمر أنَّ واحداً من كلّ ثلاثين إصابة بالسرطان في العالم ناشئة عن شرب الكحول والمسكرات بمعدل طبيعي أو مفرط.

وأشارت الدراسة إلى أنَّ شرب ٥٠ غراماً من الخمر يوميّاً يهدّد بالإصابة بسرطان الحلق أو المريء بمعدل يزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف على من لا يتناولون الخمور.

وأوضحت الدراسة أنَّ من يشرب ٨٠ غراماً من الخمر يوميّاً يرتفع لديه خطر الإصابة بالمرضين بمعدل يصل إلى ١٨٪ أكثر ممّا لدى من لا يتعاطون الخمور.

ولفت مُعِدُّو الدراسة إلى أنَّ شرب الخمر يوميّاً يزيد خطر الإصابة بسرطاني الحلق والمريء بمعدل يزيد ثلاثة أضعافٍ عن نفس الخطر الناشئ عن تدخين السجائر، وأوضحت الدراسة أنَّ التعاطي اليومي للخمر والسجائر يرفع هذه النسبة إلى ٤٤٪.

وفيما يتعلّق بأضرار القمار ورد مقال لمحسن الذهبي في موقع الحوار المتمدّن-العدد: ٢١٣٠ - ٢٠٠٧ / ١٢ / ١٥ تحت عنوان (القمار ثقافة الهوس بالثراء) يقول:

كازينوهات القمار تتسلّل إلى البيوت عبر التلفزيون والكمبيوتر، وشعوب بكاملها مدمنة على العاب الحظ.

منذ أن تستيقظ صباحاً و حتّى تذهب إلى الفراش فإنَّك محاصرٌ بالعديد من الأشياء التي تغريك، بل قد تجرّك رغماً عنك إلى عالمٍ أقلّ ما يقال عنه مثير؛ أنَّها المقامرة.

ما أن تشغل التلفزيون حتّى تتساقط على رأسك المغريات بالمقامرة وكسب الأموال الطائلة بأسهل الطرق، وما أن تتصفّح مجلّة أو جريدة حتّى تتسابق عيناك لإخبار الذين كسبوا الملايين بضربة حظٍّ واحدة. أمَّا إذا شغلت حاسبك الشخصي فلن تسلم أبداً من رسالةٍ تصل إلى بريدك الالكتروني تبشرك بأنَّك ربحت الملايين دون أن تدري أو تتّصل بأحدٍ وما عليك إلَّا الاتصال وإرسال معلوماتك الشخصيّة أو صورة جواز سفرك وفقط مبلغٌ زهيدٌ هو عدّة مئاتٍ من الدولارات أُجور نقلٍ ومحاماةٍ وخلافه. وهكذا قد تنطلي عليك اللعبة وتقع ضحيّة الاحتيال. أو تصلك دعوة لقضاء وقتٍ ممتعٍ في كازينو قمار تلعبها وانت مسترخي في بيتك ووراء حاسبك الشخصي عبر آلاف المواقع للمقامرة الالكترونيّة، بل لن تستغرب أن يكون ثلاث أرباع بريدك عبارة عن نشراتٍ ودعواتٍ واعلاناتٍ دعايةً لعشراتِ الأشكال من أنواع المقامرة. بل لا تستغرب أن يتّصل بك أحدهم دون أن تعرفه ويدعوك لزيارة موقع مقامرة أو يقدّم لك عرضاً مغرياً جدّاً.

كُلُّ هذا وأكثر وأنت لم تخرج من بيتك بعد. فما أن تخرج حتّى تغرق حتّى اذنيك بأنواع المغريات المضيئة والملوّنة وصور الحسناوات يدعونك أنت شخصيّاً بالتمتّع بالمقامرة والفوز. وما أن تدخل أيَّ محلٍّ صغيرٍ أو كبيرٍ حتّى تجد أنواعاً يصعب حصرها من المقامرة في أوراق اليانصيب وأرقام الحظّ وبطاقات الحظّ الملوّنة تكشطها فتربح، ناهيك عن محلات مراهنات السباق على كلِّ شيءٍ من الخيول إلى كرة القدم والسيارات و الكلاب وغيرها. ثم هناك وفي أغلب المحلات

والمطاعم مكائن اللعب بأشكالها التي لا تعدُّ. فقد قدّرت المجلة الدوليّة للمقامرة العامّة مؤخراً أنَّ هناك ٤٦٣٢ وسيلة مقامرة شرعيّة وأنَّ ٦٠٣ أنواع من أوراق اليانصيب الرسميّة في ١٠٢ بلد في العالم والتي تزيد جوائزها عن ربع مليون دولار، كلّ هذا ولم تصل الساعة الرابعة مساءً حتّى تفتح صالات القمار أبوابها فتعمر موائدها الخضراء بألعاب الورق وتدور دواليب الروليت على افراغ الجيوب من كلِّ ما فيها من أموالٍ بسهولةٍ ويسر.

أمَّا إذا ذهبت في سفرةٍ سياحيّة فستجد نفسك حتماً في مدن الملاهي وهناك يتفننون في إغرائك.

يقول جون هاورد رئيس وزراء استراليا السابق أنَّ أكثر من ٢٩٠ الف استرالي لديهم مشكلة المقامرة وهم مسؤولون عن خسارة أكثر من ٣ مليار دولار سنويّاً، ممّا سبّب مشاكل لمليون ونصف شخص تأثّروا بهم بشكلٍ مباشرٍ نتيجة الإفلاس والانتحار والطلاق ومشاكل العمل.

وتقدّر الاحصاءات الصادرة عن قسم الإدمان بكليّة الطب في جامعة هارفرد أنَّ هناك ٧،٥ مليون راشد امريكي و٧،٩ مليون مراهق يعالجون سنويّاً من أمراض المقامرة فيما أكدت اللجنة الوطنيّة لدراسة تأثير المقامرة في تقريرٍ أُحيل إلى الكونغرس الاميركي أنَّ عدد الذين لديهم مشاكل المقامرة قد يصل إلى ضعف العدد السابق.

إنَّ مئات الملايين حول العالم لديهم وجهة نظر في المقامرة قد تختلف من بلد لآخر، فقد اظهر استطلاعٌ تمَّ في عام ١٩٩٩ أنَّ المقامرة لم تكن فعلاً مشيناً لدى ثلثي الامريكيين بل شكلاً من أشكال التسليّة غير المؤذية نسبيّاً والسبب هو النشوة التي يحقّقها الربح وساعات اللهو التي يقضوها في تلك الممارسة بالإضافة إلى

الإثارة التي تخرج الفرد من برودة الحياة المحيطة والوحدة الفرديّة التي يعيشها الكثير في البلدان المتقدّمة ممّا دفع الامريكيون لإنفاق ما يقدر بنحو ١٢٠ مليار دولار خلال عام ٢٠٠٥ على المقامرة المشروعة فقط في حين لم يتجاوز انفاقهم أكثر من ٥٠ مليار عام ١٩٩٨ وهذا أكثر ممّا أنفقوا على تذاكر السينما والألعاب الرياضيّة بكل جمهورها العريض وتنوعها والموسيقى المسجّلة ومدن الملاهي والعاب الفيديو كلّها مجتمعة.

أمَّا في استراليا فقد قدّرت دراسة حديثة عدد الذين قاموا بالمقامرة في سنةٍ واحدةٍ بنحو ٨٠٪ من سكان استراليا لمرّةٍ واحدةٍ على أقلِّ تقدير، و٤٠٪ قامروا كل أسبوع، ويقدّر إنفاق الفرد على المقامرة بأكثر من ٤٠٠ دولار سنويّاً. وهذا يفوق ما يصرفه الاوربيون أو الامريكيون بنحو الضعف وبذلك يحتلون مركز الصدارة ممّا يجعلهم أكثر الناس ولعاً بالمقامرة.

ويدمن سكان بعض البلدان على نوعٍ معيّنٍ من المقامرة. ففي البرازيل يشترون بطاقات اليانصيب ويصرفون ما يقدر بنحو ٤ مليار دولار سنويّاً عليها. كما في دول أُوربا إذ بلغت قيمة الجائزة ١٨٠ مليون يورو لليانصيب الأوربي الموحد وللسحبة الواحدة، وفي بريطانيا تباع نحو ١٢ مليون بطاقة يانصيب ولمرتين في الاسبوع الواحد ممّا أضاف أكثر من ٢٠٠٠ مليونير لقائمة أصحاب الملايين البريطانيين منذ عام ١٩٩٤. أمَّا ايطاليا فتعد الرائدة في هذا المضمار إذ بدأ أوّل يانصيبٍ في العالم سنة ١٥٣٠ أي قبل ما يقارب من خمسة قرون.

وتنتشر الآن دور المقامرة بشكلٍ رسميٍّ في دول الكتلة الشرقيّة السابقة. فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي ونظام الحكومات الشيوعيّة سادت المقامرة تحت رعاية اعتى عصابات الاجرام والمافيات. ومع عدم وجود احصائيّات رسميّة، إلَّا أنَّ الواقع

يقول أنَّ ملايين الدولارات تنفق هناك على أمل الغنى والخروج من نفق النمط الاشتراكي إلى اقتصاد السوق، ممّا حدا بالسلطات الصينيّة أن تسمح لأوّل مرّةٍ لشراء أوراق اليانصيب سنة ١٩٨٦ بعد الانفتاح الاقتصادي على الغرب وعودة هونغ كونغ وهي مدينة المال والمقامرة. وقد انضم فعلاً أكثر من ١٥٠٠ صيني إلى قوائم ذوي الملايين بعد فوزهم باليانصيب.

كذلك يقبل الكثير من اليابانيين على لعبة "الباتشينكو" وينفقون مليارات الدولارات في المراهنة أثناء اللعب. وهكذا الحال في جميع دول جنوب شرق اسيا تقريباً ففي تايوان مثلاً ورغم منع السلطات الرسميّة للمقامرة والمراهنات ولكنّها تمارس بشكلٍ علنيٍّ تقريباً وتحت أنظار الشرطة المتستّرة والمرتشية. فقد أُلقي القبض قبل أشهر على ضابط يتستّر على صالة مقامرة مقابل رشوة تقدّر بمليون دولار شهريّاً. وعلى هذا يقاس حجم الأرباح والأموال التي تسكب على موائد القمار. وفي أمريكا اعتقلت الشرطة أمينة سر مجمع العيادات الطبيّة في مدينة نيويورك بتهمة سرقة أكثر من ٢،٣ مليون دولار خلال ثلاث سنوات من حسابات الزبائن والأطباء، وقد اعترفت أنَّها كانت تنفق حوالي ٦ الآف دولار يوميّاً على شراء أوراق اليانصيب من أجل اشباع رغبتها الجنونيّة في المقامرة والتي لم تربح منها مع كلِّ هذا الانفاق أكثر من ١٠٠ الف دولار فقط وقد صرّحت للصحفيين بأنَّها تعرف الحكم مقدّماً ما بين ٤ إلى ١٢ سنة سجن وأنَّها فرحة لأنَّها ستترك المقامرة طيلة هذه السنوات.

ومن المفارقات أن يفوز أحد أئمَّة المساجد في اسطنبول بجائزة اليانصيب والبالغة قيمتها ترليون ونصف الترليون ليرة تركيّة. وحين سئل عن الجدل في حرمة اليانصيب قال إنَّه حرامٌ شرعاً ولكن الديون التي تثقل كاهله هي السبب. ورغم

استشارة زوجته التي رفضت هذا الحرام إلَّا أنَّه احتفظ بباقي المبلغ بعد أن سدّد ديونه ممّا حدا بالزوجة أن تهجره فتزوج بواحدةٍ تصغرها وترك الإمامة.

إنَّ تغيير النظرة تجاه المقامرة هو النتيجة الحتميّة والمباشرة للوقوع تحت تأثير قوّة وعنف الحملات الاعلانيّة التي تروج لها إذ كانت في ما مضى تعدّ آفةً اجتماعيّة وأخلاقيّة لكنّها اليوم مجرّد تسلية يقبلها المجتمع ويتمسّك بممارستها رغم ما تسبّب من أضرارٍ صحيّة وخسارة الوظائف والاعانات المدفوعة للعاطلين والجرائم الناتجة عنه كالسرقة والاختلاس والانتحار.

وفي موقع ***http://www.bab.com/Node/3650*** الاليكتروني نشر بتاريخ ٢٥. ***Apr, 2001*** تحت عنوان

القصة الكاملة لانتشار آثار القمار السلبية في العالمين العربي والغربي

المال هو الهدف، وفي سبيله يمكن فتح كلّ النوافذ المظلمة والأبواب العفنة، والمال هو الإله الذي تعبده أمريكا اليوم، وفي حضرته تذبح كلّ القرابين وتضحي بكل المبادئ، حتّى لو كان مالاً قذراً كمال القمار. المهم هو أن تمتلئ الجيوب والأرصدة بالأموال ولا يهمّ إذا كان هذا المال يدّمر أُسراً ويجلب عاراً، لأنَّ بريق ذهب الميسر ذهب بعقول القوم. بهذه الشهادة قدّم (جاري بور) مدير معهد أبحاث العائلة الأمريكي، لتلك الحُمَّى التي تجتاح الولايات المتّحدة اليوم بحثاً عن المال السهل الآتي من صالات ومكائن القمار. الظاهرة أصبحت وحشاً يفتك بالأفراد والمجتمعات التي رحّبت بإقامة هذا الغول بين ظهرانيها. كيف انتشرت هذه الظاهرة حتّى أصبحت كالوباء، ومن يقف وراءها؟ وما هي مظاهرها التعسة القاتلة؟ وماذا جلبت صناعة الميسر للمجتمعات والأفراد الذين قبلوا بها؟، وكيف قامت تلك المجتمعات بمحاربة هذه الظاهرة بعد أن أصبحت خطراً شاملاً، ولماذا تفتح نوافذ

الشرِّ في مجتمعاتٍ مسلمةٍ لهذا المرض القاتل في الوقت الذي تقفل أبوابه في أمريكا والعالم؟ أسئلة يجيب عن بعضها هذا التحقيق.

في عقد الثمانينيّات والتسعينيّات انتشر القمار والميسر بصورةٍ لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ البشريّة بسبب إقرار الحكومات لقوانين تجعل من ممارسة القمار أمراً مشروعاً، بعد أن حاربته الأديان والشرائع لقرون.

يقول إدوارد والش: رأت الحكومات المحليّة والحكومة المركزيّة في واشنطن في أموال القمار إغراء لا يقاوم. وهي الجائعة إلى المال. فرأينا تشريعات إباحة القمار تنتشر في كثيرٍ من الولايات المحافظة منها والفقيرة كولاية: الميسسبي الجنوبيّة، والغنيّة كالولايات الشماليّة وانطلقت حركة القمار بقوّةٍ وجنونٍ تنتشر في أرجاء الولايات المتّحدة متخذةً من مدينتي (اتلانتك سيتي) و(لاس فيجاس) عواصم ونقاط ارتكازٍ ينطلق منها المال والرجال إلى كلِّ الولايات المُنضَّمة إلى حزب القمار أو الدول التي فتحت الباب للمال الأمريكي المستثمر في هذه الصناعة. في عام ١٩٩٤ زاد حجم المراهنات والقمار حتّى بلغت الأموال المنفقة في تلك الصناعة المدمِّرة ٤٨٩ بليون دولار أمريكي عام ١٩٩٥ بعد أن كانت ١٧ بليوناً عام ١٩٧٦، كان نصيب ملاهي القمار أو الكازينوهات كما تعرف ***CASINO 85***؟ من إجمالي المبالغ المعروفة. وبعد أن كان عدد الولايات المسموح لها بتعاطي هذه الصناعة لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، أصبحت الولايات المرخّصة للقمار ٢٧ ولاية معظمها أدخل القمار في الفترة من عام ١٩٨٩- ١٩٩٤ . توقفت بعد ذلك الولايات عن إعطاء تصاريح جديدة للقمار، وربما يثار تساؤل لماذا؟ يجيب جيمس كروس وهو أمريكي يقيم في كرثيس فيل وهي بلدة صغيرة هادئة تقع في العمق الأمريكي، تصوّرت أنَّ صناعة القمار يمكن أن تنعش الاقتصاد وتجلب الزوار إليها. لكن

جيمس يقول بعد أن ذاق طعم التجربة المرة: القمار مغامرة خاسرة ابتداءً لأنَّ كلَّ من يتوجّه إلى تلك الصالات الصاخبة يعتقد أنَّه سيربح، مقابل عشرات الدولارات سيجني آلافاً، بل مئات الألوف، إنَّه جنة الحمقى حيث يعدهم شياطين القمار أنَّهم سيربحون شيئاً مقابل خسارتهم للاشيء، والأرقام المعلنة تثبت أنَّه مقابل كل دولار يكسب هنا، يخسر المقامرون ٩ دولارات، ممّا ساهم في شيوع الإفلاس والطلاق والفاحشة المرتبطة بهذه الصناعة التي دمّرت مجتمع البلدة الصغيرة. هذه الصحوة من آثار القمار المدمرة انتقلت بسرعةٍ في كلِّ المدن الكبرى والولايات، ثم على مستوى العالم حيث اكتشفت الحكومات والأفراد أنَّه بالرغم من المال السهل الآتي من القمار فإنَّ آثاره المدمّرة تفوق ما يأتي منه من أرباح.

تقول الإحصاءات أنَّ هناك ٣ ملايين أمريكي يعانون القمار المرضي وهو مصطلح يعني تلازم القمار بتدمير الذات، والهوس بالقمار لدرجة فقدان الوظيفة والبيت، وقبل ذلك الفقر. ويرشح هذا الرقم للزيادة ليصل إلى ٥ ملايين مقامر مرضي في غضون عامين.

وقد بيّنت دراسةٌ أعدّتها جامعة هارفارد برئاسة هوارد شيفر أنَّ أعراض القمار المرضي تتراوح بين الاكتئاب والتوتّر الشديدين وفقدان القدرة على النوم، وهذا يؤدّي إلى الانتحار أو الهروب من الواقع القاسي إلى عالم المخدرات وفقدان التواصل.

ودراسةٌ أُخرى صدرت في كندا أثبتت أنَّ إدمان القمار هو المصطلح الحقيقي لهذه الفئة التي يزداد عددها كلّما ازداد نشاط صالات القمار. وتشير هذه الدراسة إلى أنَّ ١٠.٣؟ من الأمريكيين مصابون بإدمان القمار المدّمر و٦.٧؟ بالقمار المرضي الأقل وطأة، لكنّهم لم يهربوا من عالمهم الواقعي بالكليّة، لكنَّ آخرين

كهنري ليسر مدير معهد أبحاث مشكلات القمار يرى أنَّ الرقم الحقيقي قد يصل إلى ١٤؟ من مجموع الشعب الأمريكي، ويرى أنَّ التشريعات الحكوميّة التي سمحت للقمار بأن ينتشر ساهمت في زيادة هذا الوباء، لأنَّ القمار ظل لقرونٍ مستهجناً اجتماعيّاً ومحرّماً، وبمجرد السماح به بدأنا نرى الضحايا يتزايدون للضعف خلال سنوات، وهم مرشّحون للتضاعف مرةً أُخرى قبل عام ٢٠٠٣ م. هذه الصيحات المستنكرة لانتشار هذا الطاعون بدأت تقوى بعد أن أصبح القمار أحد أهمِّ الأمراض الاجتماعيّة التي يتداعى لحربها السياسيّون والمفكرون ووسائل الإعلام، بل إنَّ أكثر من خمس ولاياتٍ أجرت استفتاءات عامّة لمنع هذا المرض من الانتشار في أرجائها ،كما فعلت ولاية الميسسبي وفيرجينيا وميتشجن حيث اتحدت الكنائس والمدارس في حملة شعبية ضد القمار.

وتعتبر مدينة ديترويت من أشدِّ المناطق حزماً في قوانين السماح للقمار بعدما أضحت ولايات مجاورة مثقلة بأمراض القمار وعاهاته. ضمن فعاليّات هذه الحملة بدأت الكنائس والمعاهد والجامعات في رفض أموال اليانصيب الوطني لأنَّه أحد أشكال القمار المصرّح به، ووصلت العدوى إلى بريطانيا حيث رفضت كنيسة اسكوتلندا المِنَحَ الممنوحة من اليانصيب الوطني لأنَّها أموالٌ مكتسبةٌ من طرق محرّمة.

هكذا بدأ.. هكذا صار إذا كان الميسر أو القمار قد عرف بطرائق مختلفة وبدائيّة منذ أقدم العصور فإنَّ إشاعته ونقله إلى أساليب شيطانيّة ماكرة وجذابة تعتبر صناعة غربيّة ولا شكَّ، فإذا كان الرهان على الخيل ومن خلال النرد وألعاب الورق شائعاً بصورٍ مختلفة، فإنَّ صناعة الكازينو بدأت في القرن السابع عشر الميلادي في

أوروبا، وانتشرت مع مطلع هذا القرن على مستوى العالم، خصوصاً في المنتجعات السياحيّة حيث تُقدّم للسياح المغامرين على أنَّها صورة من صور الترفيه.

في الولايات المتحدة الأمريكية تركزت هذه الصناعة في ولايتي نيفادا ونيوجرسي، وفي روسيا عادت هذه العادة إلى السطح وسمح بممارستها من جديدٍ بعد سقوط الشيوعيّة، ودعمت حكومة يلتسين نشاط هذه الأوكار، وهي في الوقت نفسه أحد أبرز واجهات غسيل أموال المخدرات ونشاطات زعماء المافيا الروسية.

ويعتبر الصينيون من أكثر شعوب الأرض تعلّقاً بالرهان والمقامرة، فهم يقامرون على كلِّ شيء ابتداء من جنس المولود وحتى درجة الحرارة!، وبالرغم من أنَّ الحكومة الصينيّة تعتبر القمار جريمةً لا تغتفر، إلَّا أنَّها تسمح بممارسته في مقاطعاتها الساحليّة التجاريّة وتغض الطرف عن أوكار القمار في هونج كونج وميكاو. وتسعى الحكومة الصينيّة إلى تنظيم يانصيب وطني بالتعاون مع شركة فرنسيّة حيث يتوقع أن تصبح الصين أحد أهمِّ معاقل القمار في العالم خلال سنوات، وربما تتفوق على روسيا التي يبلغ عدد الكازينوهات المرخصة بها ٢٨٦ حسب إحصائيّة عام ١٩٩٤.

غالباً ما تتّحد المافيا مع نشاط القمار كما هو حاصلٌ في جزيرة تايوان التي يحظر فيها القمار واليانصيب، لكن المافيا التايوانيّة تدير شبكة تقدّر عائداتها بأكثر من ٥٠ بليون دولار أمريكي، وتقوم هذه المافيا بإعلان نتائجها عبر رشوة مسؤولي التلفزيون الحكومي حيث تقدم في السابعة من كلِّ مساءٍ أسعار الأسماك وهو برنامج يستخدم أسماء الأسماك، ثم الأرقام الفائزة كأسعار السوق مع أنَّ كل تايواني يعرف أنَّها واجهةٌ للنشاط الإجرامي للمافيا التايوانيّة.

وقد كانت بريطانيا آخر الدول التي تسمح لليانصيب بالتداول الرسمي، رغم أنَّها تعتبر من أكثر الدول معاناةً من السلوك المرضي للقمار، حيث يقامر البريطانيّون بانتظامٍ على سباقات الخيل والدوري، ويعاني ٦٠٪ من البالغين في بريطانيا من تعلّقهم الشديد بالمقامرة. وخلال العام الأوّل من السماح لليانصيب أنفق البريطانيّون عليه ٥ بلايين جنيه إسترليني، وهو مبلغٌ يفوق ما أنفقوه على الخبز والكتب في العام نفسه، وهذا ما دفع دافيد ماكاي الخبير البريطاني للقول إنَّ نشاط القمار المدّمر اقتصاديّاً قد ساهم في انخفاض النشاط البريطاني بنسبة ١٠.٥؟ في عام ٩٣ .

وتعتبر جنوب أفريقيا من أكثر دول العالم مرضاً بالقمار حيث استلمت حكومة مانديلا الحكم وقد رخّص لألف ومائتي كازينو و٤٠.٠٠٠ محل للقمار، ومعظم مرتاديها من السود الذين لا يجدون الخبز لأطفالهم، لكنّهم يستدينون المال لممارسة عادة القمار المخزية! أمَّا في الولايات المتّحدة فينفق الأمريكيون مبالغ هائلة على أنواع الرهان المختلفة ويخسرون٣٩ بليون دولار سنويّاً في رهانهم الخاسر فقط، وينفقون في الكازينوهات ١٥٦ بليون دولار، وقد سمحت السلطات للهنود الحمر بإقامة أوكار القمار في أراضيهم بزعم أنَّهم يتمتّعون بالسيادة عليها، فازداد انغماس الهنود الحمر في هذا النشاط المدّمر حيث أنشأوا ما يزيد على ١٥٠ كازينو للقمار في ٢٣ ولاية، وأصبحت القبائل الهنديّة تتسابق في سبيل الحصول على مزيدٍ من الدخل حتّى لو كان ذلك على حساب أوضاعهم الاجتماعيّة والسياسيّة البائسة أصلاً. وتنافس حكومات الولايات الأفراد ولاسيّما الهنود الحمر في الرهان بتذاكر اليانصيب الوطني الذي تبلغ عوائده أكثر من ٣٠ بليون دولار أمريكي، وتتفنّن سائر الحكومات الغربيّة في جذب أموال المواطنين التي تنفق على هذا اللون من الميسر خصوصاً أنَّ حجم الإنفاق يزيد على ١٠٠ بليون دولار سنويّاً، وهذا الرقم يزيد على

الأموال اللازمة لمكافحة أهمَّ ١٠ أمراضٍ وبائيّة في الدول النامية وإيجاد مليون فرصة عملٍ للفقراء والعوائل المعوزة. الشيطان يَعَظُّ يدافع ملاك هذه التجارة الساقطة عن جرائمهم بحجّة أنَّها تسلية، أو أنَّها ذات مردودٍ اقتصاديٍّ واستثماريٍّ نافع، وقد يستشهدون بالوظائف التي يجلبها القمار للمناطق التي يستوطن فيها. والحقيقة أنَّ القمار أو الميسر لا يستوطن سوى في أقلِّ المناطق إنتاجاً وتحضراً، فالمدن الكبرى كنيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو ترفض السماح لهذا النشاط أن يلعب دوراً اقتصاديّاً بسبب ما يرافقه من شرور، فتكاليف حماية المجتمع من شرور القمار وآثاره الجانبية باهظة، كما يقول توم جراي.

ويضيف: لذا نجد أنَّ هناك مقاومة عنيفة لهذا الشيطان في أن يستوطن ولاياتٍ أُخرى. أمَّا كلارك كومنمان المراسل الصحفي في ولايات أيوا فيقول: إنَّ الأرقام المسيلة للعاب التي يطلقها عرابو القمار غير صحيحةٍ، فقد تحدّثت دراسات عن عوائد تبلغ ٧٦ مليون دولار جراء إقامة صالة ضخمة للقمار في مدينة داجبرت، ثُمَّ ثبت أنَّ المبلغ لا يزيد على ٢٠ مليون دولار بعد سنتين من الخسائر دون حساب الآثار الاجتماعيّة والاقتصاديّة السلبيّة التي خلّفها القمار على المدينة الخاسرة مرتين.. مرّةً في رهانها على القمار ومرَّةً في ارتفاع نسبة العوائل المحطّمة على طاولات الرهان! ارتبط الرهان والقمار بالدعارة وذلك لجلب المقامرين لهذه الواحات والمنتجعات، ولا يكاد يخلو وكرٌ من هذه الأوكار من أن توظّف المرأة فيه كخادمة أو نادلة أو مضيّفة، واكتسب العديد من المدن الأمريكيّة صورةً سلبيّةً من ارتباط هذا النوع القذر من التجارة بالمتاجرة بالأعراض.

رُبَّما كان المثال الروسي صارخاً بما فيه الكفاية، حيث ارتبطت كازينوهات القمار خلال السنين القليلة الماضية بمافيا الرذيلة حتّى صعب التفريق بين الاثنين.

وفي المستوطنات الهنديّة الجديدة في أمريكا شاع الزنا والرذيلة بعد أن كثر استجلاب البغايا حتّى تكتمل التسهيلات اللازمة للترفيه عن الزبائن. الأمر نفسه تشير إليه التقارير المنشورة حول كازينو أريحا حيث استقدمت إدارة الملهى يونانيّات للقيام بواجب الضيافة الخسيسة.. وفي سبيل الحصول على المال تصبح الجريمة الوسيلة الوحيدة للتعامل بين زعماء العصابات الراعية لهذه الأوكار، وتراوحت عمليّات القتل بين ١٥ قتيلاً إلى ٣٥ قتيلاً لكلِّ مليون نسمة وهي من أعلى النسب على وجه الأرض.. وأصبح العثور على جثث مديري وملاك هذه الأوكار حديثاً لا يثير الاهتمام.. بل وصل الأمر إلى أن يُصَفّى رئيس حكومة إقليم ميكاو بعد صراعٍ بين رجال الحكومة المرتبطين بأندية القمار ورجال المافيا.

لقد أصبح الفصل بين رجال السياسة ورجال العصابات صعباً بعد أن استطاعت المافيا أن ترشو عشرات السياسيّين لضمان بقاء أندية القمار ودعمها سياسيّاً. وتوضّح قائمةٌ نشرت مؤخراً أنَّ أندية القمار وملاكها- وهم موضع مئات الشبهات- تبرعوا علناً في سنتين فقط بما يزيد على ٣ ملايين دولار للحزبين الجمهوري والديمقراطي، ونشرت قائمةٌ لرجال الكونجرس والمبالغ التي صرفت على حملاتهم الانتخابيّة المعلنة، وضمن القائمة ٢٤ شخصيّة من رجالات الكونجرس تراوحت التبرعات الممنوحة لهم من أصحاب الكازينوهات بين ٤٩٦ ألف دولار و٧٠٠.٠٠٠ دولار.

ويركز كافة الباحثين والسلطات حالياً على العلاقة بين انتشار المخدرات وأندية القمار، حيث أصبحت هذه النوادي أوكاراً لتعاطي أنواع المخدّرات لاسيَّما الهروين والكوكايين اللذان يتم تقديمهما لخدمة كبار العملاء.

ونظراً لارتفاع سعرهما وتوفرهما بكثرة في هذه الأندية فقد شهدت العديد من الولايات حالات وفياتٍ مفاجئة بين أوساط المترددين عليها. وتلقى أندية القمار حاليّاً معارضة من عددٍ غير متوقع يتمثل في أنصار كرة القدم حيث ثبت تورط مافيا القمار في عمليّات غشٍ وخداعٍ خلال مباريات الدوري في دول شرق آسيا، أو خلال مباريات كأس العالم، حيث يتلاعب أصحاب المصالح ومافيا القمار مع اللاعبين والحكّام لتأتي النتائج على غير المتوقع، ممّا يعني خسارة المراهنين أموالهم وجني أرباح طائلة تذهب لملاك هذه الصناعة الملعونة.

من جهةٍ أُخرى يعتبر القمار السبب الأوّل لإعلان الإفلاس وتدمير الودائع الشخصيّة في أمريكا، وقد أظهرت دراسةٌ أجرتها للكونجرس مجموعة إس. إم. آر. إلى وجود علاقة واضحة بين الترخيص للقمار في ٢٨٩ منطقة ومحافظة أمريكيّة وبين إعلان حالات الإفلاس والإعسار فيها. وقالت الدراسة إنَّ القمار هو السبب الأوّل للإفلاس اليوم، ووجدت الدراسة أنَّه في حالة وجود نادٍ للقمار في المنطقة فإنَّ حالات الإفلاس تزيد بنسبة ١٨٪ على مثيلاتها، أمَّا في حالة وجود نوادٍ فإنَّ النسبة تزيد على ٢٣٪.

أمَّا الخبر الآخر الذي تلقّاه الكونجرس صيف هذا العام، هو أنَّ حالات إفلاس الأفراد زادت بالرغم من الازدهار الذي شهده الاقتصاد الأمريكي في الفترة نفسها. وقد سجّلت حالات الإفلاس زيادةً خياليّةً وصلت إلى ٣٧٦ ألف حالة إفلاس مشهرة للربع الثاني من العام بزيادة نسبتها ٢٤؟. أمَّا إجمالي حالات الإفلاس فزاد على ١.٣٠٠.٠٠٠ حالة إفلاس، وهو رقمٌ قياسيٌّ. وقد أظهرت الإحصائيّات أنَّ مدينتي أتلانتك سيتي ولاس فيجاس تأتيان في مقدمة المدن من حيث حالات الإفلاس وإشهار حالات الإعسار.

ويخشى المراقبون الأثر السيء للقمار على الشباب الأمريكي، الذي أخذ أرباب القمار في غزوه والتركيز عليه، خصوصاً أنَّ الشباب لا يعي مخاطر هذا الطاعون أو آثاره القاتلة. ويرى إدوارد رولي أنَّ الخميرة الناشئة عن زرع عادة القمار بين الشباب ستفرز قريباً وباءً يصعب حصاره.

الشباب في المرحلة الثانوية يتعلم الرهان من خلال لعب الورق أو شراء ورق اليانصيب وإذا أُتيحت له الفرصة ارتاد أندية القمار المخصّصة للكبار.

وترى إليزابيث جورج مديرة معهد تدريب الشباب في مانيسوتا أنَّ الآباء يعرفون مخاطر التدخين والكحول والمخدرات.... لكنهم لا يعرفون مخاطر القمار الذي يؤدّي إليها جميعاً ولاسيَّما في فئات المراهقين خصوصاً إذا عرف أنَّ ١٨٪ من المقامرين هم دون الثامنة عشرة من العمر، وتظهر آثار القمار واضحةً بين مواطني أمريكا من أُصولٍ هنديّةٍ أي السكان الأصليين الذين آمن أجدادهم برواية عن أحدِّ ناشطيهم وهو خوسيه لوكر تقول: إنَّ الرجل الأبيض سيأتي لأمريكا بما يبيدهم معنويّاً بعدما حصدهم عسكريّاً ، سيأتي بقارورة خمرٍ وكتابٍ مجلّد إنجيلٍ وموسيقا صادحة ومجموعة أوراق للعب القمار.. ويضيف في مدّة وجيزة غزانا الرجل الأبيض بالوسائل الثلاث الدنيا حتّى استعبدنا.. ونحن اليوم نمارس وسيلته الرابعة- القمار - في حمى مجنونة من البحث عن السعادة والمال.

ومنذ عام ١٩٨٨ حينما أجاز الكونجرس قانون المحميات الهندية التي لها الحق في إقامة أندية القمار، ظهرت نتائج هذا القانون في أقلِّ من عقدٍ من الزمن على هذه الفئة المضطهدة، حيث تبلغ نسبة البطالة ضعف معدلها في المناطق الموبوءة بالقمار وازداد اضطهاد الأطفال إلى الضعف بين الهنود الحمر، ويشعر ٣١٪ من أطفالهم بأنَّهم أيتامٌ رغم وجود آبائهم، وزادت معدلات انتشار الكحول

والمخدرات والقمار بين شبابهم، بنسبة تتجاوز ضعف النسبة القوميّة، وزاد معدل الانتحار والاكتئاب الشديد، وظهرت زيادةٌ في الجرائم الكبرى حتّى إنَّ ١٣٪ من كبار المجرمين مقامرون خسروا كلَّ شيءٍ في الحياة، وليس لديهم ما يخسرونه حتّى لو قاموا بأعظم الموبقات والجرائم.

هذا الطاعون القاتل وآثاره المدمرة جعل مواجهته أمراً مُحتَّماً، فتداعى قادة الرأي والمفكرون لمحاربته في أمريكا.. ولإغلاق الباب في وجه الندوب والدمامل التي أفرزها في الجسد الأمريكي والدولي...

القمار في العالم الإسلامي حتى عام ١٩٩٣م

كان في مصر ١٤ نادياً للقمار، تمارس نشاطها بمنتهى الانفلات، في أشهر المواقع السياحيّة، وأوّلها صالة عمر الخيّام بفندق ماريوت، وصالة كازينو فندق مينا هاوس، وهما من أجمل فنادق مصر وأفخمها، أنشأهما الخديوي إسماعيل للاحتفال بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٨م، ثم صالة بفندق رمسيس هيلتون. وفي السنوات الخمس الأخيرة، منحت وزارة السياحة ترخيصاتٍ لإنشاء ١٦ نادياً جديداً. وبهذا يكون إجمالي أندية القمار المعلنة ٣٠ نادياً بالفنادق ذات الخمس نجوم، وتهدف الوزارة من وراء ذلك إلى تحصيل ٥٠٪ من عوائد هذه الأندية حتّى يتمَّ الإنفاق منها على حملات تنشيط السياحة في مصر، ولتدبير مكافآتٍ وحوافز كبار العاملين بالوزارة. إذ يتم تحصيل جزءٍ من عوائد أندية القمار لصالح صندوق السياحة التابع للوزارة. وتبلغ حصيلة هذا الصندوق ٣٠ مليون جنيه سنوياً. وقد ازداد الإقبال على صالات القمار في مصر بعد إغلاق صالات القمار في تركيا العام الماضي، حيث

ازداد دخول العاملين بصالات القمار المصريّة بدءاً من يوليو العام الماضي بنسبة ٢٠٠٪ نظراً لازدياد العمولات التي وصلت إلى ٣٠٠ ألف جنيه. ولكن -على الجانب الآخر- تشعر أندية القمار في مصر بالخطر بعد أن سمحت لبنان بإنشاء أندية للقمار، وبعد أن حوّلت إحدى الدول العربية جزيرةً فيها إلى صالة قمارٍ عالميّةٍ مرتبطةٍ بمثيلاتها في لاس فيجاس عبر الأقمار الصناعيّة. وبعد ذلك أعلنت السلطة الفلسطينيّة فتح الأبواب أمام هذا النشاط. ولأول مرة، منذ عشرين عاماً، ورغم هذه المنافسة، بدأت صالات القمار في مصر تشهد إقبالاً متزايداً من العرب والأجانب، وهذا ما حدا بخمس صالاتٍ للاجتماع لوضع ما أسموه ميثاق شرف !! يلتزم به جميع الكازينوهات لوقف الصراعات فيما بينها لجذب الزبائن القدامى والجدد، ويشتمل ميثاق الشرف المقترح على:

أولاً: توحيد الحدِّ الأدنى للعب الذى يتراوح حالياً ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ دولار، وهو ما يهدّد بإفلاس الكازينوهات الصغيرة في أيِّ وقتٍ.

ثانياً: وقف الصراع الخفي بين الصالات الذي يتمثل في خطف الزبائن وإطلاق الشائعات.

ثالثاً: تطوير أنواع اللعب وتحديثها حيث يوجد بمصر أربعة أنواعٍ فقط (بوكر، روليت، بلاك جاك، بكراه)، وهذه هي الألعاب السائدة في مصر منذ ٢٥ عاماً. يتراوح معدّل التداول بالدولار داخل الصالات المصريّة بين ٧٠ ألف دولار و٢٥٠ ألف دولار.

ويدير كلَّ صالةٍ مديرٌ عامٌ أجنبي ومساعد (مدير مصري)، وتحصل الدولة على نصف دخل هذه الصالات قانوناً. ويمتنع على المصريين دخول صالات القمار

وفقاً للقانون رقم ١٨ الصادر عام ١٩٥٨م، وكذلك هم ممنوعون من مناصب الإدارة العليا لهذه الصالات.

في حوارنا مع أحد المسؤولين عن أكبر صالات القمار في مصر، قال: الصالة تعمل طوال ٢٤ ساعة، ويتم تسجيل اللعب بكاميرا قيمتها مليون دولار، ويتم الاحتفاظ بالشرائط التي تسجّل اللعب لمدة أسبوع، ثم يتم مسحها، والكاميرا هي الشاهد الحكم إذا حدثت أيّة خلافاتٍ، ولمنع محاولات السرقة، أو الغش بين اللاعبين والعملاء!! ونسأله عن جنسيات اللاعبين في صالات القمار في مصر، فيقول: إنَّ الأثرياء العرب هم النسبة الغالبة، والأوروبيون يكتفون بالمشاهدة، والآسيويون ليسوا مرغوبين لأنَّهم يمارسون اللعب بالغشِّ والاحتيال. وعن حجم العائد يوميّاً، يقول: إنَّ عائد لعب القمار يصل إلى ٢٥ ألف دولار يوميّاً في الصالة التي يعمل بها. وفي صالةٍ أُخرى يقول المسؤول: إنَّ أكثر الرواد الرجال من الأمريكيين والخليجيين، أمَّا النساء فهن من سوريا ولبنان وتونس والمغرب، ويقول إنَّ العوائد الماليّة تصل قمّة الذروة في ليلة رأس السنة الميلاديّة، ففي ليلة رأس السنة عام ١٩٩٦م، حقّقت صالة القمار بكازينو عمر الخيام في فندق ماريوت أرباحاً قدرها ٣٥٠ ألف دولار، وفي الليلة نفسها من عام ١٩٩٧م، حقّقت أرباحاً قدرها ٤٣٠ ألف دولار. بينما وقفت عوائد صالة القمار في فندق مينا هاوس في الليلة نفسها عند حدود ٤٤ ألف دولار. والسبب هو أنَّ المقامرين العرب يفضّلون ماريوت على مينا هاوس. ونسأله عن أشهر المكاسب والخسائر في دنيا المقامرين، فيقول: إنَّ مقامراً عربيّاً خسر ٩٠٠ ألف دولار في ليلةٍ واحدة في صالة عمر الخيام في فندق ماريوت، وفي الليلة نفسها كسب مقامر عربي ١٠٠ ألف دولار. كلّ المحيطين بعالم القمار في القاهرة، لا ينسون ديسمبر عام ١٩٩٣م، حين خسرت إحدى الشخصيّات العربيّة

المعروفة في الخليج ١٤ مليون دولار في صالة القمار بفندق رمسيس هيلتون، وقد جاءت الخسارة على مدى سبعة أيام بمعدل مليوني دولار في اليوم الواحد.

وتشير آخر إحصاءات وزارة السياحة إلى الحقائق التالية:

* يحقق كازينو عمر الخيام للقمار في فندق ماريوت من ١٩ إلى ٢٠ مليون دولارٍ أرباحاً سنويّة.
* يحقق كازينو فندق سميراميس من ١٢ إلى ١٥ مليون دولارٍ أرباحاً سنويّة.
* يحقق كازينو فندق رمسيس هيلتون من ١٥ إلى ١٧ مليون دولارٍ أرباحاً سنويّة.
* يحقق كازينو هيلتون طابا من ٧ إلى ١٠ ملايين دولارٍ أرباحاً سنويّة.
* يحقق كازينو النيل هيلتون ٣.٥ إلى ٤ ملايين دولارٍ أرباحاً سنويّة.
* يحقق كازينو مينا هاوس مليون دولارٍ أرباحاً سنويّة.
* تبلغ حصيلة الدولة من ٨٠ إلى ١٠٠ مليون دولارٍ سنويّاً.

شباب القمار

وإذا كان صحيحاً، أنَّ المصريين ممنوعون من دخول صالات القمار في الفنادق الكبرى، إلَّا أنَّ ذلك لا يعني أنَّ ممارسات القمار غير موجودةٍ في المجتمع المصري. فالظاهرة في انتشارٍ متزايد، وما يزيدها خطورةً، أنَّها - الآن- تنتشر بين الشباب من فتيانٍ وفتياتٍ، حيث يلعبون كلاً من الكوتشينة والدومينو وزهرة النرد (الطاولة) على رهاناتٍ ماديّة قادت معظمهم إلى الدمار والفشل. فهذا الشاب أ. ع. س يقول: إنَّه بدأ القمار كنوعٍ من أنشطة الترفيه والتسليّة المجرّدة، ثُمَّ دخله إعجابٌ به زاده تعلّقاً به، حتّى وصل الأمر إلى ابتزاز والديه للحصول على المال المطلوب،

ولم يفق إلَّا في نهاية العام الدراسي حين ظهرت نتائج الامتحانات ووجد اسمه معلّقاً في لائحة الراسبين! إذا كان هذا الشاب قد خسر عامه الدراسي، فإنَّ شاباً ثانياً (أحمد...) قد خسر أصدقاءه، حيث دخلوا معاً إلى عالم القمار، وبدأت المشاجرات تدب بينهم بسبب المكاسب والخسائر. أما الثالث فقد خسر دينه وعقله، حيث ارتبط لعب القمار لديه بإدمان المخدرات، فمن إدمان القمار يحصل على المال اللازم لإدمان المخدرات. وهذه (منال...) تقول إنَّها لجأت للقمار، وتخيّلت في البداية أنَّ لعب القمار ينمي الذكاء، ثُمَّ اكتشفت في نهاية الطريق أنَّه ينمي الدمار!، حيث قادها لعب القمار إلى رفيقات الرذيلة وطريق السوء!.

وإذا أردت مؤشراً يدلك على انتشار هذه الظاهرة الخبيثة، فاقرأ صفحات الحوادث في الصحف المصرية لمدّة شهرٍ واحد ستجد العناوين التالية:

- خسر نقوده في القمار فحاول قتل صديقه.
- خسر نقوده في القمار فاتّهم صديقه بسرقته.
- يشعل النار في زوجته بائعة الخضار لأنَّها منعته من لعب القمار بنقودها.
- عاطل وشقيقه يقتلان طالباً بسبب القمار.
- ضبط وكرٍ للقمار تتردّد عليه السيدات المسنّات.
- ضبط أكبر شبكةٍ للقمار يديرها طبيبٌ مشهورٌ.
- ضبط لواءٍ متقاعدٍ وخمسة رجال أعمالٍ في وكرٍ للقمار بمنزل أحد الأطباء.
- أشعل النار في زوجته ومنع أبناءها من إنقاذها لمّا حاولت منعه من لعب القمار في المنزل.
- خسر ٦٠٠ جنيه في القمار فطعن صديقه حتّى الموت.
- تجار المخدرات يلعبون القمار.

المقامر.. فارغٌ

والآن ماذا يقول علماء النفس والاجتماع في تحليل شخصيّة المقامر؟ القمار عادةٌ سيّئةٌ تدل على الفساد الأخلاقي في شخصيّة المقامر، هكذا يتحدّث الدكتور يسري عبد المحسن أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة، ويضيف: المعروف والثابت أنَّ لعب القمار أمرٌ مكروهٌ ومرفوضٌ اجتماعيّاً ونفسيّاً، فمن يقبل عليه لديه عجزٌ أكيدٌ في التربية وتشوهٌ واضحٌ في السلوك، ولديه رغبةٌ في الخروج على القواعد والأعراف الاجتماعيّة، وانتهاك الحدود الدينيّة، وهذا دليلٌ على وجود نقصٍ ما في شخصيّة المقامر، يذهب لتعويضه بالخروج على المجتمع. ويتدارك الدكتور يسري عبد المحسن، ليقول إنَّنا مسؤولون عن وقوع الشباب – بصفةٍ خاصّةٍ- في براثن القمار، فالأب غائبٌ، والأم عاجزةٌ، والمدرسة لم تعد مؤسسةً تربويّةً، والإعلام لا يقدِّم إلَّا القدوة السيّئة.

وهذا ما توافقه عليه الدكتورة عزة كريم أستاذة علم الاجتماع إذ تقول في تحليلها النفسي لشخصيّة المقامر: إنَّه شخصٌ يشعر بفراغٍ ما أو نقصٍ ما، قد يكون فراغاً دينيّاً، وذلك بافتقاد الشخص للمقوّمات الأخلاقيّة الرادعة، أو فراغاً عاطفيّاً وإنسانيّاً، أو فراغاً مهنيّاً، أو يكون ثريّاً ثراءً غير محكومٍ بضوابط أخلاقيّة فيندفع صاحبه لمثل هذه الممارسات بقصد اكتساب القوّة والوجاهة من النوعيّة المحيطة به من البشر. وفي تحليلها لأسباب انتشار ألعاب القمار بين الطلبة والطالبات تقول: إنَّ ذلك ناتجٌ عن فراغ الشباب الذي لا يجيد استثمار الوقت. فأصبح يعاني الفراغ الذهني، حتّى الجامعة نفسها لم تعد مكاناً محبّباً لطلابها. وتحذر من الرحلات الشبابية البعيدة عن الرقابة، مؤكّدة أنَّها البداية التي ينطلق الشباب منها لممارسات القمار، فهو يبدأ اللعب برهانٍ على مشروبٍ ثُمَّ على وجبةٍ، ثُمَّ على نقودٍ، ثُمَّ يدخل

مرحلة الإدمان. وإذا كان القانون يحول دون ارتياد المصريين للثلاثين صالةٍ الموجودة في الفنادق الكبرى، فإنَّ الواقع يقول إنَّ في مصر صالات قمارٍ لا حصر لها.

الاستسلام في المعركة

الاستسلام يعني الخضوع والانقياد والوقوع في أُسار الطرف المعادي، ويكون هو المسؤول عن تحديد مصير الطرف المستسلم، فإذا كان المنتصر يتعامل بأخلاقيّات الحرب سوف يحسن التعامل مع هذا الأسير، ولكن مع ذلك يبقى هذا الأسير فاقداً لحريّته، وأمَّا إذا لم يكن صاحب أخلاقٍ فسيرى هذا الأسير الذّل والهوان على يديه وبعد أن يتشفّى منه سيعمد إلى قتله شرَّ قتلة.

في معركتنا هذه الاستسلام يعني الخروج من ولاية الله إلى ولاية الشيطان، فيكون الشيطان أولى بالتصرّف فيه من نفسه، وهذا إنَّما يحصل بعد الكفر بالله وأنبيائه ورسله، وليس بالضرورة أن يكون هذا الكفر صريحاً وظاهراً، فتراه يتبنّى الايمان بالله وكتبه ورسله ولكن هذا الايمان لا يقبله الله سبحانه وتعالى، من قبيل ايمان النصارى بالله الواحد الأحد مع أنَّهم يقولون أنَّه ثالث ثلاثة وأنَّ عيسى إلهٌ، كما حكى ذلك عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَذِينَ كَفَرُوا

مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]. فهؤلاء ظاهراً يؤمنون بالله وأنبيائه ولكنَّه ايمانٌ باطلٌ ليس له حظٌّ من الحقيقة، وهم داخلون في ولاية الشيطان وقد زُيِّن لهم فعلهم هذا كما يقول سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

فمن يقع في ولاية الشيطان فهو قد أعلن استسلامه في المعركة، وجعل نفسه تحت تصرّف عدوّه يفعل به ما يشاء ويستخدمه كما يريد ويجعله أحد جنوده ووسائله التي يضلُّ بها من بقي يجاهده في ساحة المعركة، فما أقبح هذه العبوديّة، أن تصبح عبداً لعدوك الذي لا همَّ له إلَّا إذلالك وهلاكك، تستبدل بها عبوديّتك لله التي هي اسمى درجات العزّ والكرامة، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]. وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

ولكن يبقى هذا الاستسلام ليس نهائيّاً وليس هو نهاية المعركة، إلَّا أن يبقى على هذا الحال إلى حين الموت، ويكون عند ذلك الخسران المبين ـ أعاذنا الله منه ـ ، فإنَّا قلنا سابقاً إنَّ الإنسان ما دام في هذه الحياة يمكن أن يغيّر اتجاه مسيرته، وإن كان في كثيرٍ من الأحيان يكون ذلك صعباً جدّاً بسبب اعتياده على مسيرةٍ مُعيّنه

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٤) سورة المنافقون، الآية: ٨.

يتعسّر عليه تركها، ولكن مع ذلك من أراد وصمّم على التغيير أمكنه ذلك، وهناك شواهدٌ كثيرةٌ في التاريخ .

علامات الاستسلام

قلنا أنَّ الاستسلام هو الدخول في ولاية الشيطان وقبضته، وله علاماتٌ يعرف بها صاحبه، ولنستقرئ القرآن الكريم لنرى ما هي علامات هذا المستسلم؟

قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[1].

هذه الآية تشير إلى أنَّ عبادة الشيطان توجب العذاب والدخول في ولايته، وليس المراد من عبادة الشيطان هو الصلاة له وما شاكل ذلك من مظاهر العبادة، وإنَّما المراد منها امتثال أمره واطاعته، وترك طاعة الله سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أنَّ أبا ابراهيم حسب التعبير القرآني كان يعبد اصناماً وهي العبادة الرائجة آنذاك ممّا حدى بإبراهيم عليه السلام الذهاب إلى المعبد وتكسير تلك الآلهة إلَّا كبيراً لهم، فحينما يقول ابراهيم لأبيه لا تعبد الشيطان مراده لا تطيعه في عبادة غير الله وتترك عبادة الله، فتدخل بذلك في ولاية الشيطان وتخرج من ولاية الله، فمن يتوجّه بالعبادة لغير الله فهو قد استسلم للشيطان، فهذه علامةٌ من علامات الاستسلام تعرف من خلالها كثيرٌ من البشريّة أعلنوا استسلامهم.

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٤٤ ـ ٤٥.

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. هذه الآية أيضاً تتكلّم عن عبادة الشيطان لأنَّ دعاء الآلهة وهي الإناث لأنَّ الأصنام كانت تسمّى بأسماء الإناث اللات والعزى ومناة وغيرها، بل في الحقيقة هم يعبدون الشيطان المريد، فهم ضالون عن هدفهم يُمَنُّون أنفسهم بالسعادة والنجاة، يقطعون آذان الأنعام كي تكون علامة أنَّها لآلهتهم، ويستخدمون بعض ما خلق الله لغير الغاية التي خلق من أجلها، كلُّ ذلك بأمرٍ من الشيطان متصلّبون في إطاعة أوامره باعتباره وليّاً لهم متصرّفٌ في أنفسهم ومصالحهم.

وما يستحق أن نقف عليه في هذه الآية لتكون علامة أولياء الشيطان واضحةً هو امر الشيطان بتغيير خلق الله، فهل يمكن لأحدٍ غير الخالق أن يُغيِّر خلق الله أم ليس له ذلك؟ وما هو مغزى الشيطان بهذا الأمر؟

والجواب: أنَّ كلَّ ما يقع في العالم هو بإذن الله وأمره، وما يتحقّق من تصرّفٍ في بعض خصائص مخلوقاته إنَّما هو وفقاً للقوانين التي وضعها هو ومن خلالها يتم تغيير بعض المخلوقات عنصريّةً كانت أو نباتيّةً أو حيوانيّةً، فهذا في حقيقته ليس تغييراً لخلق الله بل هو من خلق الله، وليس هذا هو مراد الآية من أمر الشيطان، بل مرادها استعمال مخلوقات الله التي سخرها للإنسان في غير الغاية التي خلقت من أجلها، فكل ما على الأرض سخرها الله كي تعطي للإنسان ما يحتاج إليه

---

(١) سورة النساء، الآيات: ١١٧ ـ ١٢٠.

حال حياته ليقوم بدور خلافة الله على الأرض وتحقيق عبادة الله، ثُمَّ يرحل منها ويعود إلى الله سبحانه وتعالى يكون بذلك أدّى أمانته، أمَّا إذا استعملت خيرات الله في تشييد سلطان الإنسان على الأرض واظهار تكبّره وتجبّره وطغيانه، وكأنَّه مخلوقٌ لهذا العالم وخالدٌ فيه، يبسط ظلمه وفساده في الأرض ويسفك الدماء كلُ ذلك من خلال استعمال مخلوقات الله، فهذا تغييرٌ لخلق الله، فالشيطان يأمر أوليائه أن يستعملوا ما خلق الله في اضلال الناس وقطع الطريق عليهم، فمن خلال ذلك نعرف أنَّ أولئك الذين استسلموا للشيطان يستخدمون كلَّ الوسائل التي خلقها الله من أجل أن يُحرِّفوا الخلق عن طاعة الله، وما أكثرهم في زماننا هذا فإنَّ كل وسائل العلم والتكنلوجية جعلت وسيلة لتكريس الطغيان والتجبّر وظلم الناس واستعبادهم، وهذه الآية اللاحقة تكشف عن ذلك بوجهٍ جلي.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1]. فمن استسلم للشيطان لا يكتفي منه بمجرّد الاستسلام بل لابدَّ من جعله في صفوف جيشه لكي يحارب عن وليّه، فهل يتصوّر هذا الإنسان ماذا يصنع؟ يقاتل لأجل من يريد هلاكه، ويدافع عنه أليس هذا من تغييرٍ لخلق الله؟! فمن يُلقي بزمام أمره إلى الشيطان لابدَّ أن يقوده إلى ما هو صائرٌ إليه، حتّى يكون من حزبه كما قال الله سبحانه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) سورة المجادلة، الآيتان: ١٩ ـ ٢٠.

فهؤلاء المستسلمون أصبحوا في المعسكر الآخر ومن حزب الشيطان يدافعون وينافحون عنه بالقول والفعل، وتبنّوا موقفه ويأخذون توجيهاتهم منه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1]. بل في الحقيقة أصبحوا من شياطين الإنس، كما قلنا سابقاً إنَّ هناك شياطين من الجنِّ وعلى رأسهم إبليس وشياطين من الإنس أدخلهم إبليس في حزبه فصاروا جنوداً له ظاهرين بين بني آدم.

فالنتيجة: إنَّ أهمَّ علامات من استسلموا في معركتهم المصيريّة هي أنَّهم لا يؤمنون بالله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. ومن خلال عدم ايمانهم وكفرهم بالله ينطلقون لتحقيق أهداف الشيطان والدفاع عنه وتلقي التوجيهات منه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

خسارة الحرب

يقال إنَّ خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب، لأنَّ الحرب سجالٌ يومٌ لك ويومٌ عليك، وهنا نريد أن نتحدّث عن خسارة الحرب لا عن خسارة معركة، قد ينتصر الشيطان في جولاتٍ من المعارك، يغوي الإنسان ويوقعه في ارتكاب المحذورات، عقائديّاً أو سلوكيّاً، وقد ينهض من سقطته تلك ويتنبه لجرمه ويتداركه، ويكسب جولةً في معركة، فهذا كله وإن كان مهمّاً ولكن تبقى الأهميّة العظمى وقت الحسم، وهو ساعة الموت على أيِّ حالٍ يكون الإنسان فيها؟ وتلك الجولة الآخرة التي يُسجّل الفائز فيها أنَّه منتصرٌ، فكم من الناس كانوا في قبضة الشيطان أكثر سِني عمرهم، ولكن في نهاية حياتهم كتب لهم حسن الختام، وبائت كلَّ جهود الشيطان بالفشل وخاب سعيه لسنين طوال، وكذا العكس فإنَّ كثيراً من الناس كانوا أصحاب سابقة في الدين والخيرات ومكثوا على ذلك دهراً ولكن ما أن دقَّ جرس الجولة الأخيرة وقرعت طبول آخر معركةٍ حتّى خرَّ فيها صريعاً يلفظ أنفاسه بين يدي الشيطان.

فليس المدار هو ما عليه الإنسان في حال عنفوانه وصحّته، وإن كان هذا له دورٌ مهمٌ في تحديد الخاتمة للإنسان، ولكنَّ المهمَّ جدّاً هو الموقف قبل المعاينة بقليل، وقبل أن تبزغ علامات الموت ويشرف على العالم الآخر، في هذه الفترة كيف يكون الإنسان؟ وما هي معتقداته ومواقفه من اتباع الحقِّ؟ في هذه الفترة تكون الجولة الأخيرة من الحرب ويتحدّد على أساسها المصير.

السؤال المهم الذي يحتاج إلى اجابةٍ هو أيُّ شيءٍ يخسره الإنسان في هذه الحرب؟ في العادة الخسائر في الحروب بشريّةً ومادّيةً ومعنويّةً، فما الذي يخسره الإنسان فيما إذا خسر هذه الحرب مع الشيطان؟

ليس بعد خسارة النفس من شيءٍ، فإنَّ كلَّ خسارةٍ يمكن أن تجبر وتعوّض إلَّا خسارة الإنسان نفسه، وليس المقصود أن يفقد الإنسان حياته في هذه الدنيا، بل قد يكون فقدان الحياة فيها تجارةً مربحةً كما إذا كانت في سبيل الله سبحانه وتعالى، كما قال عز اسمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]. فهذا بيعٌ وشراءٌ مباركٌ يورث الفوز العظيم وتعهد الله تبارك وتعالى بالإلتزام به والوفاء، وإنَّما الخسارة أن يفقد الإنسان نفسه، بمعنى أنَّه يوردها الهلكة والعذاب الأليم، يقول الحقُّ سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[2]. كان من المفترض لهذا الإنسان أن يعيش السعادة هو ومن يرتبط بهم من أحبائه، فإنَّ من كمال سعادة الإنسان أن يرى من يحبّه سعيداً، من أجلّ ذلك يلحق الله به أحبّائه كي تقرّ عينه، كما قال سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[3].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.

(٣) سورة الرعد، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

كما أنَّ من تمام شقاء الإنسان أن يعيش أشدَّ العذاب وأن يرى أعزائه يعيشون مرارة الألم والعذاب أيضاً، فيكون هذا من أوضح مصاديق الخسران كما ذكرت الآية: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[١]. فهذه خسارةٌ ما بعدها خسارة، وهذا هو نصر الشيطان وهو أن يكون بني آدم معه في النار، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾[٢].

ومن خلال التفتيش في القرآن الكريم يمكننا أن نستكشف أهمَّ عوامل الخسارة، فنحن نعرف أن المُتصدِّر في قوائم الخاسرين هو الشيطان، وسبب خسارته ليس هو عصيانه لأمر الله تبارك وتعالى بالسجود، فإنَّ آدم أيضاً عصى الله سبحانه كما يُصرِّح القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٣]. ولكن شتّان بين المعصيتين، فإنَّ معصية آدم جاءت عن طريق خداع الشيطان له وإغوائه وأقسم له أنَّه ناصحٌ له، قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٨.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢١.

أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١]. فحينما ارتكبا المعصية اعترفا بخطئهما وطلبا المغفرة من الله وعَلِما أنْ لم يدركهما غفران الله فالخسران نصيبهما، لذا قبل الله العذر منهما وغفر لهما، أمَّا معصية الشيطان فهي لم تكن مجرد معصيةٍ صدرت عن خطأ واغواء، بل كانت نابعةً من عنادٍ للحقِّ واعتدادٍ بالنفس واصرارٍ عليها، فلذا كانت خسارته الكبيرة بعد كلِّ ما أتى به من طاعةٍ وعبادةٍ لله سبحانه.

إذن السبب الرئيسي للخسارة هو العناد للحقِّ كما حصل مع إبليس، وليس السبب المعصية، فإنَّ المعصية إن لم تكن عن عنادٍ تُغْفَر، فهو سبحانه القائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

والطاعة أيضاً ليس لها قيمةً مع العناد، كما في طاعة إبليس لله، وكما أوصى الله أنبيائه بذلك حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣]. فمع العناد ينسف العمل ولا يبقى له أيَّ أثرٍ، ويكون كسرابٍ بقيعةٍ، أو كرمادٍ اشتدّت به الريح في يومٍ عاصف، كما يعبر القرآن الكريم.

فالإنسان كيف ما كان ترجى له النجاة فيما إذا لم يكن في نفسه عنادٌ للحقِّ واستكبار عليه.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) السورة السابقة، الآية: ٦٥.

نتائج الاستسلام

الآثار السلبية التي تنتج عن الاستسلام في المعركة مع الشيطان كثيرةٌ في شتّى مجالات حياة الإنسان، فهي لا تقتصر فقط على ضرر المستسلم، وإنَّما يعود ضررها على المجتمع الآدمي بصورةٍ عامّةٍ، ولنتكلّم في كلا المجالين فنقول:

إنَّ المستسلم في المعركة أسرع ما يناله هو الذلّة والهوان، فإن قلت نرى كثيراً من الذين لا يؤمنون يعيش حياة الترف والرخاء و الدعة، وإنَّ أكثر المؤمنين يعيشون في شظفٍ من العيش وفقرٍ ومرضٍ وبلاءٍ وتخلّف، فأين الذلّة والهوان من الكافرين؟

أقول: إنَّ هذه الأُمور هي كيفيّاتٌ وأحوالٌ نفسيّةٌ لا تقاس من خلال معيشة الإنسان الماديّة، فإنَّ الذلَّة هي شعورٌ نفساني حينما يكون الإنسان مقهوراً لجهةٍ ما، بقطع النظر عمّا يمتلكه من وسائل الراحة والرخاء، وكذا بالنسبة إلى العزّة فهي حالةٌ نفسانيّةٌ تتمنع من خلالها لقهر قاهرٍ والانقياد والانصياع إليه، ولا علاقة لها بكلِّ وسائل الترف، فأُبات الضيم لا تؤثّر طاعة اللئام على مصارع الكرام، فكم من فقيرٍ معدمٍ تحسبه أغنى الأغنياء، كما قال الحق جل جلاله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1]. وكم من مترفٍ مُرفَّهٍ ضاقت به الدنيا برحبها حتّى عمد إلى اعدام نفسه هرباً من الضنك الذي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

يعيشه، ويكفيك الاطلاع إلى الإحصاءات السنوية للمنظمات الدوليّة للبلدان التي يكثر فيها الانتحار، فإنَّك سترى أنَّ الدول الإلحاديّة واللادينيّة هي التي تتصدّر سلّم تلك الدول، وإنَّ الدول المسلمة لا تكاد تراها مدرجةً في تلك القوائم، فما هو السبب يا ترى الذي يؤدّي بالإنسان أن ينهي وجوده في هذه الحياة والحال أنَّ كلَّ الملذات في متناول يديه؟! ألا تصدّق قول الحقِّ وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1].

فسبب الذلَّة هي العبوديّة لغير الله، لأنَّ كلَّ من يستعبدك يريد أن ينتفع منك قهراً، أمَّا عبوديتك لله فهي على خلاف ذلك، فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين، هو يريد أن ينفعك ويجعلك في جواره وقربه في جناتٍ تجري من تحتها الأنهار أُكُلُها دائمٌ وظلّها، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار، ومن لم يكن عبداً لله فهو عبدٌ للشيطان ولا ثالث في البين، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ*وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[2].

هذا بالنسبة إلى الضرر الفردي في الحياة الدنيا، وأمَّا الضرر في الآخرة فالعذاب الأليم الخالد، كما قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

وأمَّا الضرر الذي يعود على الناس بسبب الاستسلام في المعركة فهو بسبب تجنيد الشيطان لأُولئك المستسلمين وجعلهم أداةً طيّعة بيده، فهم ليس فقط يساهمون في اضلال اخوتهم من بني آدم وإنَّما يعمدون إلى قتل أنبياء الله ورسله وأوليائه وكلّ دعاة الاصلاح، ويكونوا عقبةً كؤود في طريق المصلحين، ويمنعون الناس من الاستجابة لدعوتهم، فأمعن النظر في هذه المحاورة التي ينقلها القرآن الكريم لتعرف دور أهل الاستكبار في ضلال الناس، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1].

فالنتيجة أنَّ هذه الحرب ليس فيها مكانٌ للحياد فإنَّه ليس بعد الحقِّ إلَّا الضلال، فإمَّا أن تقف في صف جند الله وحزبه – وحزب الله هم الغالبون – وإمَّا أن تكون في صف حزب الشيطان – وحزب الشيطان هم الخاسرون – والاستسلام يعني أنَّك اخترت الطرف الخاسر في المعركة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) سورة سبأ، الآيات: ٣١ ـ ٣٤.

وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

اختيار المواجهة

الله تبارك وتعالى أعذر وأنذر وبيّن للثقلين من عباده أنَّ هناك طريق مرضاته وهناك طريق سخطه ونقماته، طريق الرحمن وطريق الشيطان، وهم بالخيار لسلوك أيٍّ من الطريقين، والإنسان لا يقف في هذا المفترق إلَّا أن تتوفّر فيه شرائطٌ خاصّة، فليس كلَّ إنسانٍ يتوجّه له التكليف الإلهي بالطاعة، وإنَّما الإنسانُ البالغ العاقل المختار هو الذي يقال له اطع الله ولا تعصه، وقليلٌ من الناس يلتفت إلى أنَّه في هذا المفترق في حداثة سنّه ويسلك طريق مرضاة الله جلّ جلاله، ويكون في خط المواجهة مبكراً مع الشيطان، فيكون من أصحاب السابقة في الدين وفي ساحة الجهاد الأكبر، وهناك قسمٌ من الناس سلك طريق الشيطان منذ حداثة سنّه، ودخل في ولاية الشيطان ولكن يرجى له أن يلتفت إلى نفسه في يومٍ من الأيام ويفلت من قبضته ويكون في خطِّ المواجهة معه بقيّة عمره حتّى يختم له بخير، وهناك قسمٌ ثالثٌ متذبذبون بين الطريقين، تارةً يضع قدم هنا وأُخرى يضع قدم هناك.

اختيار موقف المواجهة بحدٍّ ذاته تفضّلٌ من الله سبحانه وتعالى وتوفيقٌ، فالبعض يكون في بيئةٍ تساعده على التنبّه أنَّ هناك عدوّاً يريد أن يوقعه في الهلكة،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

وهذه البيئة قد تكون عائلته أو مدينته أو أصدقائه أو مدرسته، وهذه من نعم الله على مثل هذا الإنسان، وهناك بعضٌ آخر يولد في بيئةٍ فاسدةٍ تهيّء له الانخراط في طريق الشيطان.

قد يقال هذا ليس من العدل في شيء، كيف يستوي هذا وذاك والحال أنَّ هذا هُيّئت له أسباب الهداية ولذاك أسباب الضلال؟ فهل من العدل إعطاء الأجر لأحدهما ومعاقبة الآخر؟

والجواب عن ذلك هو أنَّ الإنسان في أيِّ بيئةٍ كان يكون الاختيار تحت يده والبيئة والظروف لا تسلبه اختياره ولكن تسهِّل له ذلك، ويبقى غير مرغمٍ على اختيار طريق الصلاح والفساد، ويدّل على ذلك أنَّ هناك كثيرٌ كانوا في حواضن الفساد اختاروا طريق الصلاح وأصبحوا صالحين ومصلحين، كزوجة فرعون ومؤمن آل فرعون وغيرهم، وكذا العكس تجد أُناسٍ في بيئةٍ صالحةٍ اختاروا طريق الفساد، كابن نبيّ الله نوحٍ وزوجته وزوجة نبيَّ الله لوطٍ وغيرهم، فالاختيار موجودٌ على كلِّ حال.

ولكن في الغالب الله سبحانه وتعالى يريد أن يخفّف عن عباده وييسر لهم فيجعل كلَّ إنسانٍ في البيئة التي تساعده على ما يختاره، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[1].

نرجع إلى حديثنا عن اختيار المواجهة الذي يحتاج إلى أن يتنبّه ويستيقظ الإنسان من نوم الغفلة، ويلتفت إلى أنَّه مخلوقٌ لغايةٍ ومطلوبٌ منه تحقيقها، وأنَّه

---

(١) سورة الليل، الآيات: ٥ ـ ١٠.

يُحاسب على التهاون بها، قال سبحانه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[١]. الله يعلم أنَّ الإنسان ينغمس في هذه الحياة الدنيا وينسى ويغفل عن الغاية من خلقه، لذا تكفّل الله له أن يبعث له من يوقظه من غفلته ويذكره العهد المنسي مع الله سبحانه كما قال جل مجده: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٢].

على أساس هذا يتبيّن لماذا أنَّ الله حصر وظيفة الأنبياء بالتذكير فقط، كما قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[٣]. فلا بدَّ من ايقاظ الناس وتذكيرهم لإقامة الحجّة عليهم، وإلفات نظرهم إلى غايتهم حتّى لا يضلوا عن تلك الغاية ويقعوا فريسةً سهلةً بيد عدوّهم، فانظر إلى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[٤]. فهو سبحانه يؤكّد على غاية الإنسان وهي عبادته سبحانه ويحذر من الانحراف عنها فإنَّه ضلالٌ وهو لا

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

(٤) سورة يس، الآيات: ٦٠ـ ٦٢.

يؤدّي إلّا إلى عبادة عدو الإنسان، الذي يريد هلاكه، قال جل علاه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ*وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فانظر كيف تنقلب الموازين عند الإنسان الغافل وتتبدّل المواقع عنده فيتّخذ وليّه عدوّاً له وعدوّه يكون له وليٌّ ويقدم له أرفع درجات الطاعة والخضوع وهي العبادة فيكون عاصياً لله متمرّداً عليه، وخاضعاً ذليلاً منقاداً للشيطان، والحال أنَّ الله يريد كلَّ الخير للإنسان والشيطان يريد الشرّ به، فمن اتبع هدى الله فلا يضلُّ ولا يشقى ولا خوفٌ عليه ولا حزن، ومع ذلك يترك الإنسان دعوة الله ويستجيب لدعوة الشيطان، كما يقول سبحانه على لسان نبيّه ابراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2].

نحن قد ندّعي إنَّا اخترنا طريق مواجهة العدو الحقيقي باختيارنا دين الله واعتقادنا بما جاءت به أنبيائه ورسله، وهذا صحيحٌ في الجملة، ولكن المواجهة الحقيقيّة تعني تبنّي الحقَّ اعتقاداً وقولاً وفعلاً، وإلّا تكون المواجهة جوفاء فارغةً من محتواها، يدّعي صاحبها أنَّه يقارع الشيطان والحال أنَّه متبع لخطواته اتباع الفصيل أثر أُمه.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

فهل حال الأُمة الإسلاميّة الآن هو حال المواجهة والمنابذة للشيطان أم أنَّ غالبية الأُمة واقعةٌ في أساره يقودها حيث شاء ويوردها أين ما أراد؟ فإنَّ المواجهة تعني القطيعة مع كلِّ شيءٍ يمت للشيطان بصلةٍ حتّى مجرد الركون إليه، ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾[١].

فأوّل منازل المواجهة هو التنبّه من نوم الغفلة والتوبة إلى الله سبحانه، والحذر كلَّ الحذر من ألاعيب الشيطان وكيده ومكره، فإنَّ من يختار مواجهة الشيطان يجد الشيطان قد تهيء لمواجهته بكافّة العدّة والعدد، ويجده قد قعد له على الصراط المستقيم من أجل ازالته عنه بكل ما أُوتي من قوّة.

فالدعوة للتوبة هي دعوةٌ للمنهزمين من خط المواجهة للرجوع إلى رشدهم وأخذ مواقعهم في ساحة المعركة، وهي دعوةٌ من الله على لسان أنبيائه كما قال سبحانه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[٢].

وللتوبة مقتضياتٌ لابدَّ من مراعاتها:

أولاً: الندم على ما حصل من تقصيرٍ في جنب الله.

ثانياً: العزم على ترك العود فيصمم على أن لا يعصي الرحمن ولا يطيع الشيطان.

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٢) السورة السابقة، الآيتان: ٢ ـ ٣.

ثالثاً: أن يتدارك ما فاته من ايفاء حقوق الخالق والمخلوق.

فإذا حصلت هذه الأُمور الثلاثة يكون الإنسان تائباً عائداً إلى الله راجعاً إلى موقع المواجهة بعد الانهزام.

اعادة تنظيم القوى

بعد أن يتنبّه الإنسان إلى هزيمته ونتائجها ويريد أن يرجع إلى خط المواجهة وصفوف المجاهدين من جديدٍ، يحتاج إلى أن يعيد تنظيم قواه وعساكره، كما تفعل الجيوش المنهزمة أو التي تلقّت ضرباتٍ قاسيةٍ من العدو، لأنَّ بقائها مشتّتةً وغير منظّمة يجعلها فريسةً سهلة التناول والأخذ من قبل الأعداء، فهكذا حال المؤمن بعد الاستيقاظ والتوبة، وفي الحقيقة أنَّ التوبة هي من إعادة التنظيم فإنَّ المؤمن لمّا يشعر بخطئه يندم على ما حصل ويعزم على أن لا يعود إلى خطئه ويتدارك ذلك الخطأ، ثم لابدَّ له أن ينظر ويفتش عن سبب الهزيمة لكي يتلافاه مستقبلاً، ويجد نقاط الضعف من أجل تقويتها، ولا بدَّ له من تعزيز نقاط القوة عنده حتّى تكون أكثر فاعليّةً في التصدي لهجمات العدو، ومركز نقاط الضعف هو شهوات الإنسان ورغباته، فلابدَّ له من سدِّ تلك الرغبات من الطرق المرسومة من قبل الشرع من غير افراطٍ أو تفريط، ومركز نقاط القوّة هو عدم الغفلة والتنبّه للغاية، وكلا المركزين فيه تفاصيلٌ كثيرةٌ تحتاج إلى الوقوف عليها والتأمّل فيها.

المعركة الدفاعيّة

ليس الإنسان عدوّاً للشيطان، لأنَّه ببساطةٍ غيرُ منافسٍ له، ولا يشعر أنَّ هناك منزلةً ازاحه الشيطان منها، أو يحاول عرقلة الشيطان في الوصول إليها، ولولا أنَّ الشيطان يرصد العداوة للإنسان لما كان الإنسان ليعادي الشيطان، فعداوة بني آدم لإبليس وقبيله هي ردُّ فعلٍ طبيعي، يدافع به عن نفسه.

وحينما نقول معركةً دفاعيّةً لا نقصد أنَّ الإنسان يمكن أن يبادر بحربٍ استباقيّةٍ للقضاء على العدو أو لشلِّ حركته وتكبيده خسائر لا يستطيع أن يواصل المعركة بسببها، فإنَّ كلَّ هذا غير حاصل، فإنَّ الإنسان يحاول فقط أن يبعد الشيطان عن طريقه ويغلق المنافذ والثغرات لدخوله، هذا كلّ ما يقوم به الإنسان، وأكثر من ذلك لا يستطيع وليس بمقدوره أن يقتل الشيطان أو يسبب له ضرراً جسديّاً، أو حتّى يرغب في اضلاله أو اغوائه حتّى لو لم يكن الشيطان ضالاً وغاوياً.

فحينما نقول أنَّ هناك معركةً فهي في الواقع من طرفٍ واحدٍ والطرف الآخر وظيفته عدم التمكين من نفسه فقط، والانتصار يتحقّق بالصبر والثبات في الدفاع عن النفس وعدم اعطاء الفرصة للعدو في الغلبة والسقوط في حبائله، فاستقامة الإنسان على طريق الحقِّ اعتقاداً وعملاً هو الانتصار، والانحراف بأيِّ نحوٍ كان انكسارٌ في المعركة أو خسارةٌ في الحرب.

إعداد عدَّة الحرب

لمَّا تكون هناك عداوةٌ معلنةً وطبول الحرب تقرع، فلابدَّ من التهيؤ لها وتوفير المتطلّبات اللازمة لتلك الحرب، هذا فيما إذا كان الإنسانُ عازماً على المقاومة أو الانتصار، وإلَّا يؤخذ على حين غرةٍ ولات حين مندم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1]. أمَّا إذا كان الانتصار لا يعني شيئاً – خصوصاً إذا كانت الخسارة معنويّةً وأُخرويّةً، وإن كان في أحيانٍ كثيرةٍ ينجم عنها أضرارٌ بدنيّةٌ – فلا يهمُّ الإنسان الاستعداد للحرب وإعداد العدَّة لها.

أمَّا كيف يكون الاستعداد لهذه الحرب والحال أنَّها ليست بحربٍ تقليديّة حتّى يستعدَّ لها؟ لابدَّ من ملاحظة أمرين وهما:

أولاً: يتعلّق بالبعد النظري عن الإنسان، وهو يتضمّن أُمور

منها: امتلاك المنهج الصحيح في تقييم الأفكار، فإنَّ الإنسان حينما يفتح عينيه بوعيٍ على ما حوله يجد نفسه محاطاً بركامٍ هائلٍ من المعتقدات والمذاهب والأفكار والنظريات في شتّى المجالات، والذي يهمّه من كلِّ هذه القضايا المدعاة هو ما يتعلّق بهذه الأسئلة الجوهريّة من أين جاء؟ وماذا يجب عليه؟ وإلى أين هو ذاهب؟ فإنَّه إذا حدّد واختار الأجوبة لهذه التساؤلات، سوف تتوجّه بوصلة مسيره وسلوكه.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

وليس من السهل اختيار الأجوبة لهذه التساؤلات، وأقول اختياراً وليس ابتكاراً لأنَّ من سبقوه من البشريّة أدلو بدلوهم وأعطوا الاجابات المتناقضة والمتضادّة لهذه الأسئلة، وتبنّي المنهج الصحيح والميزان الدقيق لتقييم الأفكار يساعد كثيراً انتخاب الأجوبة التي تكون قريبةً من الواقع، وإن كان اختيار الميزان والمنهج من بين كثيرٍ من الموازين والمناهج أشدَّ خطورةً من انتخاب الأجوبة لهذه التساؤلات.

وأيُّ خطأٍ في اختيار المنهج يؤدّي إلى الأجوبة الخاطئة وهو ما يجعل مستقبل الإنسان مهدّداً بالشقاء أو لا أقلَّ عدم وضوح الرؤية للمستقبل وهو ما يؤدّي إلى الضلال، وهذا وذاك هو الهدف الرئيسي لعدو الإنسان، فإنَّه إذا أخطأ المنهج أو الإجابة ليس فقط يفقد الإنسان مستقبله بل سيكون آلةً فاعلةً بيد الشيطان يسقط بها الآخرين من سواء الصراط ويكونوا صرعى في هذه الحرب، وما نراه من الترويج والدعاية لكثيرٍ من الأفكار هي في الواقع أشراكٌ منصوبةٌ ممّن وقع فريسةً بيد الشيطان، للنظر إلى هذا النموذج الذي يحكيه القرآن وهو يبيّن اختياراً سيئاً لأجوبة تلك التساؤلات، هذه طائفةٌ من الناس اعتقدوا أنَّهم جاؤوا ونشئوا من عالم المادة والطبيعة وينتهون فيه وليس هناك أيّ عقلٍ مدبّرٍ لهذا الكون له غايةٌ من خلقه بهذا الابداع المنقطع النظير، وهذه الطائفة من الناس ورثت تلك الإجابات عن اسلافها وورثتها لمن جاء بعدهم، لذا نرى بين ظهرانينا كثيراً منهم، قال سبحانه وتعالى حكاية عنهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي

مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وهذا التبنّي للأفكار لا يرتكز على منهجٍ صحيحٍ وقعوا فيه ضحيّةً للشيطان من دون حجّةٍ أو برهانٍ، فتمعّن بقول الحقّ تبارك هُداه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

ثانياً: يتعلّق بالبعد العملي والسلوك، وسلوك الإنسان هو بناءٌ فوقاني لبعده النظري والاعتقادي الذي يمثّل البنية التحتيّة في شخصيّة الإنسان، فكلّما كانت العقيدة أصوب وأقرب إلى الواقع كلّما كان السلوك منضبطاً أكثر، ولا أقصد بانضباط السلوك هو الناجم عن الرقابة الخارجيّة على أفعال الإنسان، فإنَّ هذا الانضباط حاصلٌ في كثيرٍ من المجتمعات على اختلاف مذاهبهم الوضعيّة والفكريّة والدينيّة، ولكن ما الذي يجنيه المجتمع اللاديني من انضباطه بالقوانين الوضعية؟ سيحصل على الأمن والاستقرار والعيش الكريم، ولكن في هذه الحياة فقط أمَّا الحياة الأُخرى كيف سيكون حاله هناك؟ هو سيجيب بأنَّه لا توجد حياةٌ غير هذه، ولكن ماذا لو وجدت حياةٌ في غير هذه الدار وهو لم يعد العدّة لها؟ بلا شكٍ سيكون شقاءٌ لا يقاس به أيُّ رفاهٍ دنيوي وأيُّ لذّةٍ عاجلة، أمَّا الانضباط الحاصل على أساس الاعتقاد فإنَّه يحقّق كلا الغرضين معاً، كرامةً هنا وسعادةً هناك.

---

(١) سورة الدخان، الآيات: ٣٤ ـ ٤٢.

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

فخير عدّةٍ يتحرّز بها الإنسان هو الايمان والعمل الصالح، والمواجهة من العدو لا تتمّ إلَّا بهما ومن خلالهما، وهما ليس بمستوىً واحدٍ في جميع الأفراد، بل للإيمان درجاتٌ متفاوتةٌ فيه حدٌّ أدنى ولا سقف لحدّه الأعلى، كما أنَّ لزيادته عللٌ وأسبابٌ لنقصانه أيضاً عللٌ، يحاول الشيطان جاهداً لتوفير أسباب نقص الايمان وزواله والإبعاد عن أسباب الزيادة.

ولابدَّ أن نلفت النظر إلى أنَّ منظومة الاعتقاد الحقّ ركائزها الأساسيّة يمكن الوصول إليها من خلال النبيِّ الداخلي في كلِّ إنسانٍ وهو العقل، وهو قادرٌ على إدراك أنَّ لهذا الكون خالقٌ مدبّرٌ خَلَقه لغايةٍ، وهو الذي يحدّد الطريق للوصول إلى تلك الغاية، فهذه هي أُصول الاعتقاد في جميع الأديان السماويّة، وهي التوحيد والمعاد والنبوّة، وهو الذي يقول لنا إنَّ هذا نبيٌّ صادقٌ وذاك متنبئٌ كاذب، لذا يقول الحقّ سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فالفطرة المودعة في خلق الإنسان هي الدين القيّم، ولكنَّ أكثر الناس يجهلون أمرها، وإن كان كثيرٌ منهم يهتدون إليها، فإذا أوصلتنا الفطرة إلى النبيِّ الحقّ نأخذ بعد ذلك كلَّ تفاصيل الاعتقاد الحقِّ منه، وهو الذي يحدّد لنا الطريق الموصل إلى رضوان الله، فالالتزام بتعاليم الأنبياء وشرائعهم هو المنجي من الهلكة في المعركة مع الشيطان، لأنَّ هؤلاء يمثّلون الإنموذج للخلافة الإلهيّة على الأرض وهم الذين أفلتوا من كيد الشيطان ومكره وجسّدوا أروع الانتصارات عليه، وهم أدرى الناس به و بأساليبه وهم خريجون مدرسة الوحي الإلهي، فالمتمسّك بهديهم يكون متحصّناً من شرِّ الشيطان،

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

فدعوى الايمان من دون التمسّك الفعلي بما جاء به أنبياء الله لا تجدي شيئاً ولا تنفع في هذه الحرب الضروس، ولو كان الإدّعاء من دون التزامٍ باطناً وظاهراً ينفع لما أتعب أنبياء الله أنفسهم في المجاهدة في حرب الشيطان، فهل نحن أكرم على الله منهم؟! قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٨٣ ـ ٩٠.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

بعد ملاحظة هذين البُعدين النظري والعملي، نحتاج في الاستعداد للحرب إلى أُمورٍ أُخرى وهي: التحالفات والثقة بالنصر والصبر والثبات في المواجهة، نستعرضها تفصيلاً إن شاء الله تعالى.

التحالفات

حينما تكون المواجهة في الحرب مع جيشٍ كبيرٍ من حيث العدّة والعدد ومستبسلٌ في المواجهة وجريٌء في الإقتحام، فما عساك أن تفعل وأنت بمفردك حتّى وإن كنت أشجع الشجعان؟ ولا تقل أُقاتل بمفردي لأنَّ الهزيمة مصيرك لا محالة، وإنَّما يأكل الذئب القاصية من الغنم، فلابدَّ لك من حلفاء يقفوا معك ويدافعوا عنك.

والتحالف في هذه المعركة ليس بالضرورة هو تكثير العدد، فالكثرة ليست دائماً نافعةً، كما قال الحقُّ جلَّ علاه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[1]. وإنَّما النوعيّة هي التي لها بالغ الأثر في النصر، كما حكى الله عن أُولئك المؤمنين: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

فالحلف في المعركة مع الشيطان يكون مع أعداء الشيطان الحقيقيين، فلابدَّ من ملاحظة هذه النوعيّة من الحلفاء، لاتحاد الهدف والغاية والمقصد، ولو استرجعنا ما قرأنا سابقاً من أنَّ غاية الله من خلق الإنسان هو الاستخلاف وأنَّ غاية الإنسان الواعي لهدف الخلقة هو ذلك أيضاً وأنَّ الشيطان يحاول جاهداً افشال هذه الغاية سنفهم وندرك جيداً أنَّ تحالفنا لابدَّ أن يكون مع الله سبحانه ومع أُولئك الواعين لهدف الخلقة والمجسّدين له، وهم الأنبياء ومتبعيهم من المؤمنين، فنحن نحتاج بعد الإيمان بالله والعمل الصالح إلى ولاية الله وأنبيائه والمؤمنين.

إذا عرفت ذلك ستعلم لماذا أولى الله الاهتمام البالغ بالتولّي والتبرّي، بل علّق وجود الإيمان عليهما، ولم يجعل أيَّ أثرٍ للعمل الصالح بدونهما، فإنَّك إن أدركت عداوة الشيطان لك يعني أنَّك أدركت الغاية من خلقك، فلا يمكنك أن تحقّق الغاية وأنت ترمي نفسك بأحضان عدوك، فإذا سلمته زمام أمرك فأنت تحالفت مع من يريد افشال المشروع الإلهي وهو استخلاف الإنسان في الأرض، وأنت بذلك اخترت عداوة الله ومولاة الشيطان، والحال أنَّه يريد هلاكك، فانظر إلى قول الحقِّ جلَّ جنابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾[1]. وقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١.

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فهذه الآيات ونظائرهُن كثيرةٌ تدعو إلى التبرّي من أعداء الله، لأنَّ الايمان لا يجامع مودّة أعداء الله في قلبٍ واحدٍ، فلا مناص من اختيار أحدهما.

وقال سبحانه في موالاته وموالاة أوليائه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2]. فمن يريد الغلبة والنصر فهذا طريقهما، وهو أن يكون في حزب الله بأن يتولّى الله ورسوله والذين آمنوا، والله هو الضامن لهذه الغلبة، لأنَّ الله هو الخالق للشيطان وهو أعرف بمكامن ضعفه وثغرات مكائده وحبائله، وهو الذي أطْلَعَ أنبيائه عليها جميعاً لكي يجتنبوه، وأمرهم بتبيانها لمتّبعيهم من المؤمنين به وبأنبيائه، والمؤمنون ما لم يتواصوا بتلك الوصايا ويصبروا عليها فإنَّ مصيرهم يؤول إلى الخسران، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) سورة العصر.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

فالنتيجة أنَّ من يريد المواجهة مع العدو والانتصار عليه لابدَّ أن يضُمَّ إلى الإيمان بالله والعمل الصالح التولّي لله والرسول والمؤمنين والتبرّي من أعدائهم حتّى لو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو أزواجهم أو عشيرتهم، فإنَّ الله لم يجعل لمؤمنٍ من قلبين في جوفه، يحب بأحدهما أولياء الله وفي الآخر أعدائه، ولا يمكن اجتماعهما في قلبٍ واحدٍ، فإمَّا أن تكون في حزب الله، وإمَّا أن تكون في حزب الشيطان، وحزب الشيطان هو الخاسر جزماً كما قال الله سبحانه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) سورة المجادلة، الآيات: ١٩ ـ ٢٢.

الثِقَةُ بالنَصْرِ

العامل النفسي مهمٌّ جداً في حياة الإنسان في جميع المجالات، ولا تكاد تطيب الحياة ويهنأ العيش إذا كانت النفس متكدّرةً وكئيبةً ومنكسرةً وقلقةً، بل تكون المعيشة ضنكاً حتّى لو توفّرت كلّ وسائل الرفاه والعيش الرغيد، هذا وهي تعيش السِلْمَ والأمن، كيف بها في حال الحرب وفقدان الأمان ووجود الخوف على النفس والأهل والمال والولد؟

وهذا الذي يُفسِّر لنا أُسلوب الجيوش والقوى المتصارعة في بثّ الدعايات قبل الحروب وبعدها، سواءً ما يخصُّ العدو أو ما يخصُّ جيش أصحاب الدعاية أنفسهم، حتّى يكون هذا مقدّمةً لاندحار العدو نفسيّاً قبل أن يكون عسكريّاً وحتّى يعيش الطرف صاحب الدعاية النصر النفسي قبل أن يعيشه عسكريّاً وفي ساحة المعركة، وهذا الأُسلوب أُستعمل في معارك المسلمين ضدَّ القوى المعادية لهم وفي أكثر من معركة، كما يقصُّه القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[1]. فقذف الرعب في قلوبهم من أجل زعزعة ثقتهم بالنصر وبالتالي حصول الهزيمة النفسيّة، وفي تأييد الجيش المسلم بالملائكة من أجل تعزيز ثقتهم بالنصر والغلبة بالدرجة الأُولى، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١]. فالنصر من عند الله سبحانه ولكن هناك أسبابٌ له، وأهمها الثقة بالنصر والتوكّل على الله، فلمّا يكون هناك ثقةٌ بالنصر يكون السلوك منضبطاً في ساحة المعركة ولا يكون ارتباكٌ واضطرابٌ وارتجال بردّة الفعل ممّا يفقد السيطرة في المعركة ويكون من السهل توجيه الضربات المميتة للعدو، فالدعاية لها أثرٌ ايجابي وهي تعزيز الثقة والثبات في صفوف المقاتلين، وأثرٌ سلبيٌّ وهي التأثير على العدو لكي يفقد رباطة جأشه ولا يسيطر على سلوكه في القتال، هنا تكمن أهميّة العامل النفسي.

فالنفس هي التي تتحمّل الأعباء براحةٍ واطمئنان، وهي التي تجزع من صغير البلاء، وهذا وذاك له أسبابه، فعندما يكون الإنسان مؤمناً بالله سبحانه وتعالى يطمئن قلبه وتطيب نفسه، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[٢]. لمَّا يتذكّر المؤمن أنَّ مصدر القوّة والعزّة والغلبة معه وهو الذي بيده مقاليد السموات والأرض وهو الضار النافع كيف لا يعيش الراحة والاطمئنان؟! وهل يستطيع أحدٌ دونه أن ينفعني أو يضرني؟! وهل أخاف أن يحيف عليَّ أو يظلمني وهو الحكم العدل؟! فهذا حال المؤمن ونفسيته، تجده أصلب من الجبل فإنَّ المعاول تنال من الجبل وتفل منه والمؤمن كلّما كثر الطرق عليه كلّما اشتد ايمانه بربّه، يقول الحقُّ

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) سورة الرعد، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]. فممَّ يخاف عليهم؟ وعلامَ يحزنون؟ وهم قد اشتدّ أُنسهم بربّهم واستلانوا ما استوعره المترفون.

فمن تكون هذه حاله مع ربّه كيف يخشى مخلوقاً مهمّاً عظمت شوكته؟! فهو يستشعر الغلبة على كلِّ حالٍ ويعيش النصر في كلِّ لحظةٍ ولا يوجد في قاموسه شيءٌ اسمه الخسارة، لأنَّه يناجي ربّه في أعماق نفسه ويقول له ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك، ويعلم أنَّه صاحب القدرة المطلقة وقد آوى إلى ركنه الشديد، فمن هو الشيطان حتّى يتغلّب عليه؟! اليس هو القائل ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢]. فعباد الله ليس له مطمعٌ فيهم وفي إغوائهم، فهذه هي الثقة بالنصر من يتسلّح بها فالنصر حليفه لا محالة.

أمَّا من يعيش الانهزام في نفسه فكيف يثبت أمام الأعداء في سوح القتال؟ وكيف يمكنه مواجهة أعتى الأعداء وأصلبهم في المواجهة وهو الشيطان؟ فمثل هذا الشخص الهزيمةُ مكتوبةٌ على جبينه، والخسران حليفه.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

الصَبْرُ والثَبَاتُ

مَنْ مِنَ الناس لا يعرف قيمة الصبر ولا يثني على الصبور في صغير الأُمور وعظيمها؟ ومن لم يلمس نتائجه الايجابيّة العاجلة قبل الآجلة؟ حتّى أنَّا نرى أجر الصابر لا حدَّ له ويبقى سقفه مفتوحاً عند الله سبحانه كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]. وقال: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[٢]. وورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد». كما ورد ذلك بطرق كثيرةٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أهَلَّ بعض الأفراد لكي يكونوا أئمةً يهدون بأمر الله كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٣].

وإنَّما يكون الصبر في المواطن التي يصعب على النفس تحمّلها فيُطلب منها الصبر على تحمّل الأعباء، وهل هناك أكثر ثقلاً وعبئاً من ساحات القتال التي تتعرّض فيها النفس إلى الهلاك وفقد الأحبّة؟ فما أحوجها إلى الصبر في تلك المواطن، ونتيجة الصبر في المعركة إمَّا أن يُقتل فتحمد مواقفه في الدنيا وينال درجة الشهادة في الآخرة، وإمَّا أن يَقتُل عدوّه فيستريح من عدوِّه وينال أجر المجاهدين في سبيل الله.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٠.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

ولكنَّ المشكلة في حربنا مع الشيطان لا يوجد هذان الخياران، ولا يمكن أن يقول الواحد منَّا اثبت حتّى لو أدّى ذلك إلى مصرعي، لأنَّ في هذه المعركة المصرعُ غير محمودٍ، لا كما في ساحات الحرب التقليديّة عندما يقول الشجاع لنفسه حينما تفزع وتجزع من المواجهة:

وقولي كُلّما جأشت وجاشت....مكانك تحمدي أو تستريحي

في هذه المعركة لا تُقتَل فتحمد ولا تَقتُل عدوّك فتستريح منه، لأنَّ مصرع الإنسان معناه أنَّه يقع في قبضة الشيطان، ويكون ضحيّةً له، هذا مضافاً إلى أنَّه لا يستطيع أن يقتل الشيطان لأكثر من سببٍ تقدّم ذكره.

فهذه المعركة أصعب بكثيرٍ من المعارك الظاهريّة التي تقع بين بني آدم أنفسهم، لأنَّها تحتاج إلى صبرٍ حتّى يأتي أجل الله، لأنَّ زمان انتهاء المعركة كما قلنا هو ظهور علامات الموت للإنسان، فهنا ليس من خيارٍ غيرَ الصبر والثبات سوى الوقوع في قبضة الشيطان والسقوط في العذاب الأبدي.

الاستعاذة من الشيطان

الاستعاذة من العوذ وهو الالتجاء إلى الغير والتعلّق به بسبب خوفٍ داهمٍ لا يستطيع الإنسان أن يدفعه عن نفسه فيلتجئ إلى مَنْ هو أقوى منه لينقذه من ذلك الخطر، والغير الملتجئ إليه قد يقوم بعملٍ لحماية من يلتجئ إليه وقد لا يفعل شيئاً، فإنَّ مجرد أن تكون في كنفٍ قوِّيٍ عزيزٍ فإنَّ هذا يحصنك من الأعداء ولا يفكّر أحدٌ منهم أن يعتدي عليك خوفاً من سطوة ذلك القوي، وتكون في مأمنٍ ما دمت في صحبته وجواره، وهذا أمرٌ واضحٌ في حياتنا الاجتماعيّة فأكثر الاعتداءات إنَّما تكون على الضعفاء ومن لم يكن لهم ناصر، وأمَّا الأقوياء ومن كان في صحبتهم فقليلٌ ما يُعتَدَى عليهم ممّن هو أقوى منهم.

فالإنسان المؤمن بالله سبحانه وتعالى يرى ذلك الضعف من نفسه ويعلم قدرة الله وعظمته التي تفوق كلَّ وصفٍ ولا تقف عند حدّ، فمن الجدير به أن يلتجئ إليه ويستجير به فإنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٍ له وقائمٌ به، وهو الذي يكفي من كلِّ شيءٍ ولا يكفي منه شيء، وهو رحيمٌ به عطوفٌ عليه.

من المهمِّ جدّاً أن تبين لمن يريد أن يعتدي عليك أنَّك ليس لوحدك وأنَّك في صحبة من يستطيع أن يدفع عنك ويبطش بمن يريد بك سوءاً، لأنَّ الغير إذا عرف ذلك ارتدع عن الاعتداء، فإنَّ قوة الردع تقي من حصول الاعتداء وتجعل من يريد أن يخطو خطوةً للاعتداء يحسب له ألف حساب، لذا نجد أنَّ كثيراً من الدول الضعيفة تفتخر بتحالفاتها مع الدول العظمى أو أنَّها تستعرض كلَّ قدراتها العسكريّة بين الحين والآخر حتّى لا يفكّر أحدٌ بالاعتداء عليها، فهي بذلك تقوم بعملٍ استباقيٍّ

حينما تشعر ولو قليلاً أنَّ هناك من يفكّر بالاعتداء عليها فتستعرض وتناور وتظهر قوّتها للآخرين تريد بذلك أن توصل رسالةً مفادها أنَّني لديَّ القدرة للإنتقام ممّن تسوِّل له نفسه في الاعتداء علي.

وهناك فائدةٌ أُخرى وهي أنَّ الضعيف يستشعر القوّة حينما يجد نفسه بصحبة القوي ويزول الخور والضعف والهزيمة عن نفسه، وتتعزّز ثقته في نفسه ويرى أنَّه قادرٌ على الدفاع والصمود أمام الأخطار الداهمة.

فالالتجاء والتعلّق بالله سبحانه وتعالى أولاً يجعل الإنسان يشعر بالقوّة والمنعة بسبب ارتباطه بالله، وثانياً يجعل الغير يحسب ألف حسابٍ قبل أن يقدم على ايذائه والاعتداء عليه، ولهذين السببين نرى أنَّ القرآن الكريم تارةً يأمر المؤمن بأن يستعيذ أي يقوم بفعل الاستعاذة وهو أن يلتجئ إلى الله، وأُخرى يأمر المؤمن أن يتلفّظ بألفاظ الاستعاذة حتّى يظهر للآخرين أنَّه مع الله فيرتدعون عن الاعتداء عليه، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2] فهذه الآيات وغيرها تأمر بالالتجاء فعلاً لا قولاً، أي أن يستشعر المؤمن أنَّه متعلّقٌ بالله فيطمئن أنَّه قويٌّ فليس للشيطان قدرةٌ على التأثير عليه، وهناك آياتٌ تأمر بالتلفّظ بالاستعاذة أي أن يؤتى بالاستعاذة قولاً زيادةً على الفعل حتّى تظهر للعدو أنَّ هناك من يستطيع أن يدفع عنك، من قبيل هذه الآيات: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[3] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[1]

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٣) سورة الفلق، الآية: ١.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[٢] فهذه الآيات تأمر بالقول زيادةً على الفعل.

قلنا أنَّه يمكن أن نستفيد من الاستعاذة أمرين: الأوّل استشعار القوة والثاني ردع العدو، وهذا ليس كلَّ شيءٍ في الاستعاذة بل هناك أمرٌ ثالثٌ وهو أنَّ المستعاذ به وهو الله تعالى مجده يفعل من التدبير ما يدفع به عن عبده الملتجئ إليه، فإنَّه لمَّا كانت مقاليد السماوات والأرض بيده سبحانه فهو الذي يسبّب الأسباب ويهيّئها كيفما يشاء ويريد فدفع عن عبده الملتجئ إليه كلّ ما يخاف منه ويحذر، فلو تأمّلنا كيف دبّر الله حفظ نبيّه موسى من حين ولادته لرأينا جميل صنع الله كيف تنقاد الأسباب جميعاً لما يريده مسببها فهو سبحانه الذي أمر أُمه أن تلقيه في اليَمِ ويأخذه عدوٌ له وهو فرعون ويجعله لا يقبل الرضاع من أحدٍ سوى أُمه فيرجعه إليها ليتربّى في حجرها الطاهر ويعيش في بلاط فرعون حتّى يكون هلاك فرعون على يده، ويذكر القرآن تفصيل هذه القصّة، أو أوَّل سورة القصص وفي سورة طه، وكذلك الأمر مع يوسف عليه السلام يذكر القرآن الكريم في سورة يوسف تفصيل تدبير الله لحفظه ورعايته من خلال نفس الأسباب التي يتوقّع منها اهلاكه، فمن يلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى يقع تحت حمايته ورعايته ولا يستطيع مخلوقٌ في السماوات والأرض أن يَضُرَّ من وقع تحت حماية الله جلَّ جلاله.

---

(١) سورة الناس، الآية: ١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٧.

نماذج من الاستعاذة

إنَّ أهمَّ شيءٍ يخاف الإنسان عليه حياته وسعادته، فمن يعتقد أنَّ الحياة تنتهي بالموت فيحاول أن يبتعد ويقاول كلَّ أسباب الموت، ويوفّر كلَّ أسباب السعادة في هذه الدنيا، ومن يعتقد أنَّ الحياة الدنيا ما هي إلَّا جزءٌ صغيرٌ جدّاً من حياة الإنسان الممتدّة إلى ما بعد الموت والقيامة لابدَّ له أن يهيّئ الأسباب التي تؤمن له حياته على طولها وليس في هذه الدنيا فقط، وبما أنَّ الإنسان لا يمكنه بالاعتماد على نفسه أن يجلب لها الخير ويدفع عنها الشرَّ لابدَّ له أن يلتجئ إلى من يمكّنه ذلك فعلاً وليس ادعاءً، يقول سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[1]. فآلهةٌ باطلةٌ والمخلوقون لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً ولا يملكون شيئاً بل كلَّ ذلك بيد الإله الحقِّ والخالق المطلق فهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، فلذا نرى من يؤمن بألُوهيّته وخالقيّته هم أكثر الناس التجاءً والتصاقاً به سبحانه، لكونهم يعرفون قدرته الفائقة على حفظهم من كلِّ أمرٍ يمكن أن يُسَبِّب الأضرار لحياتهم، فلنذكر بعض موارد الاستعاذة التي وردت في القرآن الكريم :

قال سبحانه عن لسان موسى في قضيّة ذبح البقرة لمعرفة القاتل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣.

أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١]. نرى في هذه الآية المباركة أنَّ موسى عليه السلام يستعيذ بالله من أن يكون من الجاهلين، فما هو سبب التجاء موسى عليه السلام واستعاذته بالله؟

حينما نتدبّر بالآية المباركة نجد أنَّ القوم حسبوا أنَّ موسى يستهزئ بهم وإلَّا فما علاقة ذبح بقرةٍ بحادثة جريمة القتل التي حصلت في حيٍّ من أحياء بني اسرائيل؟! هم جاؤوا إلى موسى من أجل معرفة القاتل وهو أجابهم بقوله اذبحوا بقرةً، فظنّوا أنَّه عليه السلام يستهزئ بهم، والاستهزاء بالآخرين سببه الجهل، فهو لم يستعذ بالله من الاستهزاء أو أن يكون من المستهزئين وإنَّما استعاذ بالله من السبب الذي يَنْتِجُ الاستهزاء ونَتْجُ كلِّ رذيلة وهو الجهل ،ونرى أنَّه عليه السلام لم يستعذ بالله من الجهل وإنَّما قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي من الذين تلبّسوا بالجهل واستحكم في نفوسهم بحيث أصبح يُؤثّر في سلوكهم وينتج منه الاستهزاء وغيره من الرذائل، والجهل من المهلكات للإنسان ويؤدّي إلى شقائه على امتداد حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولا يستطيع الإنسان أن يجنّب نفسه هذه الآفة إلَّا بالإلتجاء إلى الله سبحانه وتعالى والركون إليه، فإنَّ الجاهل يكون العوبةً بيد الشيطان يتصرّف به كيفما شاء، والمعاصي حينما تصدر من الإنسان تصدر منه حال الجهل لذا يقول الله سبحانه عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٢]. وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[١]. فمثل هذه المعاصي تصدر من الجاهل، فإذا أعاذ الله العبد من الجهل عصمه من المعاصي ومن اتّباع الشيطان.

وفي سؤال نوحٍ عليه السلام حينما طلب من الله أن يُنجي ابنه من الغرق استعاذ نوحٌ بالله أن يسأله ما ليس له به علم، بعد أن وعظه الله أن يكون من الجاهلين، قال سبحانه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢].

فهذه الآيات المباركة تذكر لنا علمين من أعلام النبوّة والرسالة ومن أُولي العزم وهما نوحٌ وموسى عليهما السلام يستعيذان بالله من الجهل والتلبيس به لأنّه يوقع في شَرَك الشيطان وإتّباعه.

وهناك نموذجٌ آخر يذكره القرآن الكريم في التجاء أوليائه إليه حين الشعور بالخطر، وهذا النموذج يتمثّل في امرأةٍ قضت عمرها في طاعة الله سبحانه وكانت آيةً من آيات الله للعالمين وهي مريم ابنت عمران حينما كانت تتعبّد لله في محرابها وظهر لها ملكٌ من ملائكة الله بهيئة بشرٍ استعاذت منه بالرحمن كما يذكر الذكر الحكيم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة هود، الآيات: ٤٥ ـ ٤٧.

غُلَامًا زَكِيًّا﴾[١]. وهي عليها السلام قيّدت استعاذتها بالرحمن منه إن كان تقيّاً لأنَّ المُتَّقي لله يخاف من كلِّ ما يوجب سخط الله، وكيف لا يغضب الله على مَنْ يعتدي على من استجار به والتجأ إليه، فهي تقول له إن كنت تخاف الله وتتّقيه فإنّي استجرت به من أن تعتدي عليَّ فإن تجاوزت فإنَّ غضب الله ونقمته تحلُّ عليك.

ومن لطائف ما نستفيده من هذه الآية هو أنَّ هذه المرأة العابدة المطيعة لله كيف استحوذ على وجودها مَحْضَرُ الله سبحانه بحيث حينما شعرت بخطرٍ داهمٍ لم تتوجّه إلى أيِّ سببٍ من الأسباب الماديّة كما نفعله نحن فإنَّا لا شعوريّاً نستنجد بفلانٍ وفلانٍ، ولكنَّها عليها السلام مباشرةً توجّهت إلى الله سبحانه وتعالى واستجارت به، فهو سبحانه الذي كان يرعاها من صغرها وحتّى طعامها كانت الملائكة تأتي لها به كما يحكيه القرآن الكريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]. فإذا كان الله سبحانه وتعالى لا ينساها في الرخاء ويبعث لها بطعامها كيف ينساها في الشدَّة والخوف؟!

وهنا نموذجٌ آخر من الاستعاذة ولكنَّها استعاذةٌ غير نافعةٍ بل تنتج عكس ما هو مطلوبٌ منها، فإنَّ المطلوب من الاستعاذة الراحة والأمان النفسي ولكنَّها في هذا المورد تجلب المشقّة والإرهاق يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٣]. فهؤلاء الرجال من الإنس التجأوا إلى

---

(١) سورة مريم، الآيات: ١٧ ـ ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الجن، الآية: ٦.

رجالٍ من الجنِّ والحال أنَّ الجنَّ مخلوقٌ مثلهم لا يستطيع أن يدفع الخطر عن نفسه فكيف يدفعه عن غيره؟! لذا لم ينفعهم هذا الالتجاء في شيءٍ بل زادهم عناءً ومشقّة.

فالذي يريد أن يكون في مأمنٍ واطمئنانٍ عليه أن يلتجئ إلى ركنٍ وثيق وقوّةٍ قاهرةٍ ليس يقف أمامها شيء ولا يحدّها حدٌّ، وهذا لا يتوفّر إلَّا عند الخالق جلَّ جلاله، فعلى الإنسان أن يلتجئ إليه ولا يستبعد من الله أن يمدَّ له يد العون حتّى لو كان ذلك الإنسان قبيح العمل، فإنَّ الله سبحانه يذكر لنا أنَّ أُناساً يشركون به حينما يلتجئون إليه فإنَّه كريمٌ لا يردُّ أحداً ويمدَّ لهم يد العون يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

فانظر إلى رأفة الله ورحمته بعباده، وانظر إلى الإنسان كم هو جاحدٌ لنعم الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

المحتويات

المقدَّمة ٥
مَعرفة العدوّ ٧
الرُسُل إلى الجنِّ ١٠
عداوّة اللّه للشيطان ١٦
الإرادة التكوينيّة والتشريعيّة ١٩
سبب العداوة ٢٥
أهدافُ العدوّ ٢٨
معرفة امكانات العدوّ ٣٢
معرفةُ زمانِ المعركةِ ومكانها ٤٣
الحكمة من خلق الشيطان ٤٧
معرفة أساليب العدو ٥١
الزينةُ والتزيين ٥٢
الجمال والحسن ٥٣
في سرِّ صدور الأعمال الحَسَنَةِ من الضالّين ٦٣
التزيينُ لا ينطلي على الكلِّ ٦٨
الوَسْوَسَةُ ٧٢
الوحيُ والإلقاءُ والوَسْوَسَةُ ٧٤
الأغْواءُ ٧٧

التَسْويلُ والإمْلاءُ ٨٣
الكيدُ ٨٦
الاستفزاز ٩٢
النسيان ٩٤
السِحْرُ ٩٩
السحر والمعجزة ١٠٠
قدرة خرق العادة ١٠١
تاريخ السحر ١٠٢
السحر وسيلة اغراءٍ ١٠٤
«ريغان» والنبوءة ١٠٩
الرئيس الأميركي المقبل ١١٠
«أوباما»... الرئيس ١١١
المنجم الألماني «دي وول» ١١٢
التخلص من «دي وول» ١١٣
وغيرهم مع المنجِّمين ١١٤
اللوحة غنيّة ١١٥
إبطال السحر ١١٦
النجوى ١١٨
ابطال هذه الوسيلة ١٢٠
النزغ ١٢٢
المحبَّة والتّسامح ١٢٥
الوعودُ والأمانيّ الكاذِبة ١٢٨

مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ١٣٦
تَعْرِيَةُ الإنْسان ١٣٩
الخَمْرُ والقِمَار ١٤٢
القمار في العالم الإسلامي حتّى عام ١٩٩٣م ١٥٩
شباب القمار ١٦٢
الاستسلام في المعركة ١٦٥
علامات الاستسلام ١٦٧
خسارة الحرب ١٧١
نتائج الاستسلام ١٧٥
اختيار المواجهة ١٧٨
اعادة تنظيم القوى ١٨٣
المعركة الدفاعيّة ١٨٤
إعداد عدَّة الحرب ١٨٥
التحالفات ١٩٠
الثِقَةُ بالنَصْرِ ١٩٤
الصَبْرُ والثَبَاتُ ١٩٧
الاستعاذة من الشيطان ١٩٩
نماذج من الاستعاذة ٢٠٢